



ديزموند ستيوارت



ترجمة : يحيى حقي



مجاناً مع جريدة الإتحاد



■

رئيس التحرير

فرياد راوندوزي

■

موبايل ٠٧٩٠١٣١٠٢٣٢
هاتف ٥٤٣٨٩٥٨-٥٤٣٨٩٥٤
E-mail:lttihadpress@yahoo.com

الكتاب للجميع

سلسلة شعبية تعيد إصدارها
دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق- ص. ب: ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون : ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ فاكس : ٢٣٢٢٢٨٩
www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy
لبنان -بيروت- الحمراء- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول
تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧
E-mail:al-madahouse@idm.net.lb
العراق - بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
تلفون: ٧١٧٠٢٩٥-٧١٧٠٥١٣ فاكس: ٧١٧٥٩٤٣
almadapaper.com
almada112@yahoo.com almada119@hotmail.com



٥٩

ديزموند ستيوارت

القاهرة

ترجمة: يحيى حقي

تقديم: جمال حمدان

طبعة خاصة

توزع مجانا مع جريدة (الاتحاد)

دار المدى للثقافة والنشر

٢٠١٠



المحتويات

هذا الكتاب	9
مقدمة: القاهرة الكبرى دراسة في جغرافية المدن للدكتور جمال حمدان	13
الفصل الأول: القاهرة بنت الصحراء	59
الفصل الثاني: القاهرة بنت النيل	63
الفصل الثالث: القاهرة أم الألوان العديدة	67
الفصل الرابع: القاهرة الطابع البلدي	71
الفصل الخامس: القاهرة الطابع الإفرنجي	77
الفصل السادس: القاهرة والأرستقراطية	81
الفصل السابع: القاهرة الطابع النوبي	83
الفصل الثامن: القاهرة منازل الأموات	85
الفصل التاسع: القاهرة ظلال من مقدونيا	87
الفصل العاشر: القاهرة طابع الأجانب	95
الفصل الحادي عشر: القاهرة الطابع الإسلامي	99
الفصل الثاني عشر: القاهرة والأمسيات	113
الفصل الثالث عشر: العلم والتعليم	123
الفصل الرابع عشر: القاهرة والفراعنة	127

هذا الكتاب

لم يستطع معول التنظيم الغشوم ، ولا أكداس العمارات الشاهقة المسلحة بالأسمنت ، ولا غوائل الشوارع الطارئة المفروشة بالأسمنت، ولا أحياء حجارة الدومينو تنبت كالفطر وتتضخم كالسرطان ، شقا إلى القلب كالطعنة النجلاء أو لفا على الجوانب، غلافا فوق غلاف ، ولا ظل قبعة قميئة مستعارة وضعتها على الرأس يد عمياء متلهفة على التقليد -لم يستطع شيء من هذا كله أن يمس طابعها الأصيل وجلالها المكنون - هبة لها من حضارة الشرق ، ونفحة من سماته ، كلاهما خارج عن متناول الزمن وعواديه ، إن كنت تأنس لجمالها حين يطوف به خيالك إذ هو بالأمس في قصره ، في عز مجده فإنك أشد أنسا به وأنت تزوره اليوم فتراه منكمشا منزويا في صومعته. بقي من الثمرة سر الحياة والديمومة في نواتها الصلبة ، هيهات أن تتحطم ، إنها صلابة الدفاع المستميت في آخر خندق ، وهذا التجمل بالستر إذا الود فاتر ومنسي أشد نبلا من أريحيتها وإغداقها إذ هي مأخوذة بالأحضان والدنيا مقبلة..

لم تستطع الأسطح المتعالية يوما بعد يوم أن تحجب مآذنها العديدة ، باقية هي ناجية بشممها وشموخها ، ولا الضجة الهائلة التي اندلقت عليها أن تخنق ضراعات هذه المآذن ، ويخشع لها القلب وتطرب الأذن عند مولد كل فجر..

جدران عتيقة يتراكم عليها التاريخ ، آية في فن العمارة ، في ذروة الصدق ، تصون داخلها أمثلة رائعة للجمال ، تحكي في صمت قصة آلاف من الفنانين بناة

الحضارة عملوا في ورع وهم متطهرون ثم مضوا لا يعرف أسماءهم أحد، ولا يذكرهم أحد، حق لهم أن يتضاعف ثوابهم، جزاؤهم عند رب لهم عليم..

وأسواق لا تزال متشبثة بأمكنتها، كأن لها جذورا ضاربة إلى الأعماق، هيهات أن تنقصف أو تذوي، شاخت ولكنها لا تزال متشحة بأطياف من وسامة شبابها وزينة عرسها. تغير عن يمين، عن يسار، من حول كائن واحد لا يتغير، ابن البلد، بكرمه ومروءته، بلطفه وظرفه، ببشاشته وخفة دمه، بنكاته وقفشاته، بذكائه وحضور بديهته، هو الذي رقق العامية على لسانه وأثراها بأبدع مجاز واستعارة، ساخر وحكيم، تحسبه لطيبته غرا ولكنه حويط، يلقط العملة الصحيحة ولو ممسوحة من بين عملات كثيرة زائفة ولو براقة، لا ينطلي عليه الكذب والنفاق ودموع التماسيح..

هذه هي القاهرة، إن كنت لا تعرفها يا أخي فاعرفها، إذن ستحبها، ستعشقها، ستنضم إلى زمرة عشاق لها كثيرين، هاموا بها ولاء والتحاما، منذ أن ألقى في نهر النيل عقدها ما تخلف عن ولادتهم من مشيمة مصرورة في منديل، عشق بالغريزة بالإرث، بالقسمة والنصيب والحمد لقد لا تعلل تصاريفه..

لم أعرف عيدا قوميا تمثل لي فيه لقاء موعود مع حبيب كالعيد الألفي للقاهرة، بلدي الذي ولدت فيه، ونشأت في أحيائه العتيقة الشعبية، تحس أعصابي قبل عقلي بمقدم العيد، وددت أن أشارك أهلي في الاحتفال به فاخترت أن أترجم لهم عن الإنجليزية كتابا إن صدر سنة ١٩٦٥ فهو لا يزال - بقدر علمي - من أحدث الكتب التي ألفت عن القاهرة كتبه ديزموند ستيوارت الذي يتكلم العربية وتعرفه أوساط الصحافة عندنا لأنه عمل بها وأقام بيننا طويلا، وله في بلده إنتاج أدبي، متعدد متنوع. اخترت كتابه لأنه صغير الحجم، ملموم، فصوله محددة أجمل تحديد، موصولة ببراعة، أرجو أن تلحظ كيف كان أول تناوله للقاهرة من ناحية طابعها الصحراوي لأنها بل الوادي كله - في حضن الصحراء، ثم من ناحية طابعها النهري، يمضي يساير التاريخ في فصول يأخذ فيها اللاحق من السابق..

وأحب أن أنبهك إلى أن هذا الكتاب هو كلام أجنبي، مقصود به خدمة زائر أجنبي يقدم إلى بلادنا لأول مرة، فالحديث له لا للمصريين. لا تضق ذرعا إذن بمعلومات وردت به هي غير مجهولة لك. بل لعلك تجد متعة في مقارنة دلالتها عندك بدلالتها عند المؤلف، لذلك فإنه يرسم لهذا الزائر طريقه إلى المساجد والكنائس ويقيس له زمن المشوار مشيا بالساعة والدقيقة، ويحدد له أسعار فنجان القهوة

وقطار حلوان ودخول المتاحف، ولكنه يقتصد في هذه الإرشادات العلمية ويتخذ طريقا وسطا ، فلا يتسم بهذا الجفاف العلمي الذي تجده في مؤلفات فقهاء الآثار ووقوفهم الطويل أمام الأحجار والعقود والمقرنصات، (وضع الأجانب مصطلحات العمارة ونحن لا نزال في حيرة لا نستقر على مصطلح نستخدمه في التأليف أو الترجمة) ولا يتسم الكتاب كذلك بالجفاف التجاري الذي تجده في كتب دلالة السياح ، ولم يقصد المؤلف أن يقدم لنا في صورة مختصرة معلومات كثيرة استقاها من المراجع، وإنما أراد أن يحكي بأسلوب أدبي للزائر الأجنبي (وقد افترض فيه هيامه بالفن وجوانب الطرافة في الحي والجماد) ما أحس به هو ذاته داخل نفسه وهو يجوب أحياء القاهرة يعرض أحساسيه على لوحة من الحقائق التاريخية التي استمدها من مراجعها الوثيقة، إنه رأى الألوان وأطياف الألوان وشم الروائح وسمع الهدير والصمت واستقرأ الوجوه والأسطح والجدران وأكوام القمامة ، كم كنت أود أن يكتب كل أديب كبير عندنا عن القاهرة ويصف لنا وقعها على نفسه كما فعل هذا الأجنبي، إنك لا تملك إلا أن تحس أنه يحب القاهرة حبا كبيرا ، ولكن بقيت مع ذلك في نفسي من الكتاب أشياء تململت لها ، أبقيتها ليكون النص العربي مطابقا للنص الإنجليزي تمام المطابقة، وكان من الواجب أن لا تترك بغير تعليق يتولاه من هو أعلم مني بالتاريخ، ودعني أعترف لك أنني ما تناولت كتابا لأجنبي يصف فيه بلدي فأراه يلقى عليه نظرة جديدة تعتمد على ثقافة شاملة وتحاول النفوذ بالحس المرهف إلى السر من تحت السطح إلا تملكني شيء من الحسرة والغيرة ، قد يصدني أحيانا عن متابعة الكتاب لئلا أحكم بنفسي على خيابتي وقصور بصري، وهذه هي حيلة العاجز المعتذر مع ذلك بأن نيته في النهوض صادقة، والنية بلا عمل كالبندقية بلا رصاصة، فأبناء بلدي هم عندي أولى الناس بفهم بلدي وخدمته، لن أتخوف- شأني مع الأجانب- شبهة التجني عن سوء فهم، أحيانا عن سوء قصد، ثم أعود للكتاب وأنا أقول إن الأجنبي أقدر من ابن البلد على الرؤية لأنه ليس مثله ضحية الألفة المستنزفة لجدة الانتباه والعجب ، المفضية ي عناق تموت فيه اللهفة وإن بقى الحب ، وأشهد أن ديزموند ستيوارت أراني لأول مرة أشياء كان يقع عليها بصري من قبل ولا أنتبه لها..

ونحن الآن نحتفل بالعيد الألفي للقاهرة، الأم التي نحلف بجمالها ونَنعم بحضنها. سنقرأ ولا ريب أعمالا بديعة تتحدث عن التاريخ والآثار والعمارة والخطط

وتراجم الأعيان، ولكن الذي أبحث عنه هو كتاب يتحدث عن القاهرة حديث عاشق عن عشيقته، حديث إنسان حي عن إنسان حي ينفرد بملامح ثابتة وإن تقلبت ثيابه. لن يخط هذا الكتاب قلم مؤرخ أو عالم آثار، بل قلم أديب ابن بلد، أو قل قلم شاعر كتب بالنثر، والعجيب أنني وجدت ضالتي لا عند أديب أو شاعر بل عند صديقي الأستاذ عبد الفتاح عيد ، نابغة فن التصوير الفوتوغرافي في بلدنا، فإن لوحاته عن القاهرة شعر ونغم، وحس مرهف، وفيض حب كامن في أعماق القلب. وكم كنت أتمنى أن يصحب الاحتفال، بذل جهود كبيرة للتعريف بالقاهرة والحض على حبها ، أتمنى أن تنظم لنا جولات صباحية أيام العطلة مشيا على الأقدام، بالمجان، في صحبة عالم آثار لا دليل سياح، يشرح ويفسر. جهود أخرى للمناداة بصيانة الآثار الإسلامية في ذاتها وفي نوع الجيرة من حولها، وإثارة الاهتمام بفن العمارة، فمن العار أن لا تصدر مجلة للعمارة في القاهرة أم العمارة، والمطلب من هذا كله هو حث المعماريين عندنا على الوصول إلى طراز يلائم طبعنا وجونا ، ويستمد من تراثنا ، فما أشد ابتلاءنا بعمارات مستوردة لا تناسبنا، نذل بها وتذل هي بالغربة عن مواطنها، لا تنفعنا كما نفعت أهلها، فالشقاء مزدوج متبادل..

يحيى حقي

مقدمة
القاهرة الكبرى
دراسة في جغرافية المدن

بقلم د. جمال حمدان

إذا عدت المدن العواصم العظمى في العالم، فالقاهرة واردة بالتأكيد في العشرة الأولى أو العشرة ونيف. وهي المدينة الأولى- المطلقة- في قطاع هائل متصل من العالم القديم قد يجاوز ثلثه مساحة ويتعدى آفاق القارة الأفريقية إلى تخوم الألب ووسط آسيا. بل إن بضعة لا يستهان بها من الدول الأفريقية لتقل سكانا- سكان كل منها أقصد- عن حجم القاهرة كثيرا أو قليلا، وذلك حتى دون أن نذكر أن القاهرة تستأثر وحدها بنحو نصف سكان العواصم الأفريقية الخمسين مجتمعة!

وإن حصرت العواصم المخضرمة العريقة في الدنيا ، فلعل القاهرة (وأسلافها أو بأسلافها) هي أم المدن جميعا ، وعلى أية حال فقليلة جدا هي المدن التي يمكن- كدمشق- أن تنافسها في هذه الصدارة. وحتى نتمثل هذا البعد الزماني السحيق بشيء من التجسيد الذهني، يكفي أن نقول إنه قد يعادل مجموع تاريخ حفنة ليست بالقليلة من عواصم غرب أوروبا ، وقد يرجح كل تاريخ عواصم العالم الجديد مجتمعة.

أما إذا اعتبرنا الوزن الحضاري والنفوذ السياسي والوقع الاجتماعي القومي والفكري، فما من عاصمة فيما نظن لها في دولتها ما للقاهرة من ثقل ومركزية طاغية وسيطرة أو توجيه، بل وإلى حد الإفراط ربما. ولقد يختلف علماء المدن حول السؤال القديم: هل العواصم هي أكبر وخير ما يمثل ويجسم روح بلدها وكيانه، وذلك باعتبارها بوتقة تنصهر فيها عناصره وأقاليمه أم هي بطبيعتها العالمية الكوزموبوليتانية بالضرورة وبما تنضم من جاليات وأجناس أجنبية ربما تتطلع دائما

إلى الخارج تؤلف بينهم طبقة "كاستية" خاصة من المدن في العالم بعضها أشبه ببعض منها بصميم أقطارها المحلية ؟ مهما اختلف الرد فلا خوف في حالة القاهرة ، ولا يمكن له أن يقوم ، فها هنا عاصمة تستقطر وتستقطب روح الوطن وترمز إلى جوهر كيانه حضاريا وماديا ، جغرافيا وتاريخيا ، ربما كما لا تفعل عاصمة أخرى.

هذه إذن هي القاهرة: تاريخ مفعم مجمد أو محفوظ، كل حجر فيها مشبع بعبق الماضي وعرقه كل شبر منها يحمل ببصمات الإنسان. إنها- كبيت جماعي كبير، وكمنطقة مبنية لا مثيل لكتلتها في مصر- عمل فني من مقياس ضخم مهندسه وساكنه هو المصري، وهي بهذا أكثر وأكثف رقعة من اللاندسكيب الحضاري في مصر "تبشيرا" وحملا للطابع البشري، وبالدرجة نفسها أبعدها عن ملامح الطبيعة الخام واللاندسكيب الطبيعي الغفل للوادي..

وعلى الرغم من هذا كله، فإن القاهرة من أسف من أقل العواصم حظا في دراسات المدن العلمية الحديثة. كثيرة هي لا شك الكتابات الأكاديمية والشعبية المتاحة عن هذه المدينة الخالدة، ولكن الغالب عليها إما التاريخ عموما أو تاريخ العمران أو الآثار خصوصا. وربما أضفنا بعض كتابات "هواة المدن" من الرحالة أو الأدباء أو الصحفيين، لا سيما منهم الأجانب.

أما دراسة المدينة ككل حي متعضون فورا محدد السمات والقسمات، كمجتمع مركب متلاطم مضطرم يضطرب في وعاء جغرافي واضح المعالم بارز التضاريس، أما دراسات علم اجتماع المدن وجغرافية المدن بوجه خاص، أما مورفولوجي القاهرة الكبرى، تركيبها الوظيفي، أيكولوجيتها البشرية، نموها السكاني وزحفها العمراني وضوابطه، هيدرولوجية النقل ومشاكله الخانقة المختنقة، الطبوغرافيا الاجتماعية والتوزيع الجغرافي للطبقات والحروف، إقليم المدينة وحدوده، التخطيط المستقبلي ومؤشراته.. إلخ، أما هذا كله فمازال فراغا مقلقا وأرضا بكرا (ولا نقول مجهولة) منذ ظهرت أول وآخر محاولة جادة في هذا الميدان الضخم، ونعني بها دراسة كليرجية[١] في الثلاثينيات، والتي دفع بها نمو العاصمة المدى الانفجاري الحديث إلى زوايا المكتبة التاريخية بدرجة أو بأخرى.

---

١ - Marcel clerget, le cairo, etude de geographie urbaine et d'histoire economique, caire, 1943, (2 vols).

والكتاب الحالي الذي نقدم له بين يدي القارئ نموذج شائق وطريف بل وبارع لكتابات المثقفين من الصحفيين الرحالة الأجانب هواة المدن الذين يحاولون بذكاء أن يستقطروا روح أمة وشخصية بلد من خلال عاصمتها وعن طريق التجربة الحية والخبرة الشخصية، مدعمة بقراءة واسعة في التاريخ والتراث تترامى من الفولكلور إلى اللغات، ومن الدين إلى الأدب، ومن الجغرافيا والاجتماع إلى العمارة والهندسة.. إلخ.

ولقد يختلف القارئ مع بعض الأحكام والنظرات التي أوردها المؤلف كأجنبي عابر، فهذا أمر لا مفر منه وتلك عموما نقطة ضعف الكاتب الأجنبي أيا كان ومهما حاول، ولكن من المحقق- بالمقابل- أننا سنلمس لمسا نقطة القوة وميزة العين الأجنبية النافذة الثاقبة ترى وتلتقط من اللمحات الشفافة واللفتات الدقيقة اللماحة. ماقد أخفى الألف عن عين صاحب الشأن نفسه حتى غاب عنه أو كاد.

الكاتب إذن- في كلمة- قصة رحلة travelogue رحلة في الزمان والمكان، طولها مدينة وعرضها زيارة. ولكنها قصة دسمة ثرية مع ذالك، وممتعة وجذابة إلى ذلك. إنه سياحة بلا دليل، وتاريخ بلا أرقام، وجغرافية بلا خرائط، وهندسة وعمارة بلا لوحات، واجتماع بلا نظريات، وأيضا سياسة بلا شعارات: قل باختصار: علم وثقافة بلا دموع، كما يعبر الأوروبيون.

نعم بلا دموع. ومن هنا بالدقة تبدأ مهمة هذه المقدمة. ففي تصورنا أن مثلها- لاسيما ونحن نحتفل بالعيد الألفي للقاهرة- ينبغي له أن يوفر الأساس العلمي الصلب، والقاعدة المادية والفيزيقية لهذا البناء المدني الشامخ المعقد والمتعدد الأبعاد. فلعل من المفيد للقاهري ابن العاصمة، وللمصري أبي العاصمة، فضلا عن أخيها العربي، أن يكون لنفسه خريطة ذهنية مبسطة تلم شتات مدينته المترامية وأطرافها في صورة اختزالية متكاملة دالة وهادفة، تؤكد الخطوط العريضة في هيكلها وتكمل خبرته اليومية ومعايشته الجارية لأحيائها وحياتها.

لتكن هذه، إذن وبعبارة أخرى، مقدمة مبسطة في جغرافية المدينة، تحلل الأساس الطبيعي الذي تقوم عليه العاصمة موقعا وموضعا، وتتتبع نموها العمراني في ظاهرها وظهيرها، وكذلك خطتها الهندسية وكتلتها المبنية، ثم تحدد وظائفها وتوزع طبقاتها الاجتماعية وأقاليمها التركيبية، وقد تعالج أهم مشاكلها واختناقاتها. وكثير من هذه- بالفعل- جوانب عرض لها الكتاب بصورة أو بأخرى.

أما عن الترجمة والتعريب فلسنا بحاجة- أحسب- إلى الوقوف عندها طويلا أو قصيرا، وهي من قلم واحد من سادة الأدب والفكر وعمالقته المعدودين في مصر، ذي سلطان عظيم على لغتي الأصل والنقل معا بل وعلى الثقافتين العربية والغربية على حد سواء وعلى أرفع المستويات. ثم إن أمر هذه الرحلة الشائقة. وحسبي هنا أن أشهد مخلصا أنني قطعت شوطا كبيرا في مطالعة النص وأنا أظنه تأليفا ودون أن أفطن إلى أنه عمل مترجم، وهذه ولاشك أكبر شهادة لأي ترجمة ومترجم. فأنت هنا تشعر أنك تقرأ لصاحب " القنديل" بأسلوبه، بجملة التأثيرية ووقفاته ولزماته، بكل خصائصه ونكهته، كل أولئك في أمانة وولاء للنص الأجنبي هما أول ما يطلب في ترجمة. وهناك كما يقال من إذا ألفوا ترجموا، وإذا ترجموا ألفوا، ولكنك هنا أبعد ما تكون عن هذا. على العكس تماما، ستجد التزما أمينا بالنص حريصا على روح المؤلف، ولكن دون أن ترتطم قط بتلك التراكيب الفجة أو التشويهات والاهتزازات التي تسقط فيها عبودية الحرفية.

المـوقـع والمـوضـع

والموقع هو ذلك الإطار الجغرافي الكبير الذي تحدده العلائق المكانية العريضة والقيم الإقليمية النسبية التي تتعدى كثيرا جدا الحدود المحلية للمدينة وقد تصل إلى أبعاد قارية برمتها. لذا فهو فكرة متغيرة على مر العصور، وبالتالي فقليل من المواقع ما يعد خالدا في التاريخ. أما الموضوع فهو بكل بساطة الرقعة المحلية التي تقوم عليها الكتلة المبنية مباشرة، وهو لا يتغير إلا بزوال جسم المدينة ذاته وانتقالها إلى رقعة أخرى.

والقاهرة تحتل موقعا فريدا في مصر وخارج مصر. ففي إطار التقاء الدلتا بالصعيد، في عقدة الوادي وصرته، موقع حتمي خالد ظلت العواصم تدور فيه، قد تنتقل من موضع إلى موضع، ولكنها لا تخرج عنه إلا في فترات عابرة- وربما قيل شاذة- في التاريخ القومي، مثله في هذا مثل خاصرة الرافدين في العراق حيث تتابعت العواصم ابتداء من بابل إلى قطيسفون إلى بغداد، ومثل تونس على رأس البلد وعلى خاصرة البحر المتوسط حيث تناسخت قرطا جنة وتنس وتونس.

فموقع القاهرة إذا هو خاصرة مصر، مجمع الوادي والفرعين وملتقى الصحراوين، كأنما القطر كله على ميعاد فيه. ولذا تحركت فيه العاصمة عبر العصور

ولكن دون أن تخرج عن مجاله المغناطيسي. فمن منف الفرعونية(في منطقة البدر شين حاليا) إلى أون أو هليوبوليس(عين شمس ومصر الجديدة الآن) إلى بابليون (مصر القديمة) إلى الفسطاط العربية ثم إلى العسكر والقطائع الطولونية حتى القاهرة الفاطمية، كل أولئك حلقات متباينة في سلسلة جغرافية أو نسل إقليمي واحد أساسا.

وإذا كانت العاصمة قد عرفت إطارا إقليميا مختلفا ومتطوحا أكثر من مرة، كطيبة (الأقصر) في الجنوب الأقصى، وأفاريس قاعدة الهكسوس في شرق الدلتا، والإسكندرية البطلمية الرومانية، فإنما كانت الأولى في المرحلة التكوينية للدولة المصرية، وكانت الثانية انحرافة غزو أجنبي بحت، بينما أتت الثالثة انحرافة استعمارية لإمبراطورية بحرية على الجانب الآخر من المتوسط، وظلت حينا أشبه بجزيرة غريبة من الأرخبيل اليوناني نقلت وألصقت بالساحل المصري سياسيا وبشريا.

والانتقال من منف إلى الفسطاط يمثل نقطة انتقال مهمة في التوجيه الطبيعي والسياسي: فهو انتقال من الضفة الغربية إلى الشرقية، ويشير إلى أن منف، التي كانت سهلة الاتصال بالدلتا مثلما كانت أسهل اتصالا بالصعيد (حيث المعمور الزراعي يقع في سواده الأعظم على ضفته الغربية)، كانت عموما أدنى إلى التوجيه المصري المحلي..

أما الفسطاط فكانت أكثر اتفاقا مع توجيه الفتح العربي الجديد، الذي هو نحو الخارج أولا وبري الطابع ثانيا، وذلك بعد أن أصر الخليفة عمر على قائده عمرو" ألا يجعل بينه وبين المسلمين ماء"، فاختار موضع الفسطاط بدلا من الإسكندرية ومن الجيزة كما كان البعض قد اقترح عليه. ومن هنا أصبحت الفسطاط بدلا في موضع أشبه بالكوفة والبصرة في العراق، كلها ترسم مروحة حول رأس الجزيرة العربية، وكل منها يقع على نهاية واد صحراوي يخرج منها أو قربها وينتهي إلى ماء نهر كبير ولكن أساسا دون أن تعبره.

ومن هناك بدأت الجيزة تلعب دور رأس الجسر أمام الفسطاط- لاحظ اشتقاق الاسم من الاجتياز والمجاز- أي همزة الوصل بين العاصمة والصعيد، وورثت بذلك ظل منف- الظل فقط- ولذا ظلت دائما وحتى بدايات قرننا هذا حلة صغيرة مجمدة. وفي هذا الدور كانت جزيرة الروضة أشبه بنصف جسر طبيعي بين الجيزة والفسطاط،

يكمله عادة نصف آخر معلق من السفن الثابتة.. ومن الضروري هنا أن نتذكر أن موضع الفسطاط فيما هو اليوم نهاية مجمع القاهرة المدني جنوبا إنما يمثل ما كان في حينه أضيق - وأسهل - عبور للنهر بين ضفتيه، في عصر كان النهر يمثل عقبة مواصلات لا يستهان بها. ذلك أن شاطئ النيل الشرقي لم يكن يتبع حده الحالي، بل كان يبدأ من قرب مكان الفسطاط ثم ينحرف بشدة نحو الشمال الشرقي إلى قلب القاهرة الحالي في الشمال، بحيث كان الثلث أو المثلثات العربي من الرقعة الحالية تقريبا ماء وجزءا من مجرى النيل. ومعنى هذا أيضا أن الضفة الشرقية لم تكن بمثل منها يمثل إضافة لليابس تكونت بالتدريج عبر القرون اتساعها الحالي، بل كانت أقل مساحة، والمثلث الغربي نتيجة لإرسابات النهر الطميية، بينما أخذ النهر نفسه يتراجع نحو الغرب. أما تلك الأرض التي انحسر عنها النهر فلم تكن ناضجة فيزيوغرافيا على الفور، وإنما ظلت مواطئ رطبة تملؤها البحيرات والخلجان والمضاحل ولا تصلح للسكنى والتعمير إلا بعد قرون من الإرساب والنضج والصلابة. فمثلا لم تظهر منطقة الأزبكية كأرض صلبة إلا منذ الفاطمية، ومنطقة باب اللوق إلا منذ الأيوبية.

وعند هذا الحد، يمكننا أن نكون تصورا عريضا لموضع منطقة القاهرة عامة. فالضفة الشرقية تحدها سلاسل تلال تقترب من النهر في الجنوب وتنفرج بعيدا عنه كلما اتجهنا شمالا هي جبل المقطم الذي ينتهي في الشمال بالجبل الأحمر قرب العباسية. وحواف هذه السلسلة تتراوح بين ١٠٠ متر في الجنوب، و٨٠ مترا في الشمال. وتخرج من السلسلة عدة بروزات ناتئة نحو الغرب كتلول ثانوية هي من الجنوب إلى الشمال تلول عين الصيرة ثم زينهم فقطع المرأة.

فإذا عرفنا أن شاطئ النيل هنا يقع عموما على منسوب نحو ٢٠ مترا، أدركنا أن الضفة الشرقية، التي تتسع كالمروحة شمالا وتضيق جنوبا، ينحدر سطحها كلما اتجهنا من الصحراء إلى النهر، أي أن القطاع الشرقي منها مرتفع والغربي منخفض (كلمة بولاق مثلا أصلها بلاق وتعني لغة" الأرض المنخفضة"، بمثل ما أن الشرقي أقدم جدا في تكونه بينما الغربي أحدث ويزداد حداثة كلما اقتربنا من النهر.

وعلى العكس من هذا الضفة الغربية، فليس ثمة حائط تلي، بل تمتد الأرض الزراعية حتى هامش الصحراء، والأرض تنحدر لا نحو النهر بل نحو الصحراء ولكنه انحدار طفيف جدا لا يقدر إلا بالبوصات حيث يصل في الضفة الشرقية إلى عشرات

الأمتـار، إلا أنه مع ذلك واضح للعيـان كمـا يمكن للناظر أن يرى من فـوق كـوبري الزمالك تجاه ميت عقبة.

وترتيبا على ذلك كله، فإن أرض الضفة الغربية سهلية منبسطة بعامة وكلها كانت أرضا زراعيـة، بينما الشرقيـة منحدرة تصلها نهايات الأودية الصحراوية والتلية التي تعرف السيول الشتوية المفاجئة والتي يعرفها أكثر سكان الأحياء الشرقية كالعباسية والجمالية حين تتحول شوارعهم المائلة إلى خنادق مائية مؤقتة. وبينما تمتد شوارع الضفة الغربية (باستثناء طريق الهرم) كطرق مسطحة موحدة المستوى، ينفرد القطاع الشرقي من الضفة الشرقية بظاهرة الشوارع السلمية حيث تتحول إلى درج حقيقي يذكرنا بشوارع المدن الجبلية في أوروبا ولاسيما حوض البحر المتوسط.

أخيرا وعموما، كيف تبدو قيمة موضع القاهرة إذا وضعت في الميزان ؟ ثمة مزايا لاشك واضحة. فالضفة الشرقية محمية من ثلاث جهات بالنهر والتل، وهي مفتوحة من الشمال فقط. ثم إن وجود التلال الشرقية يوفر للمدينة مادة بناء ثمينة من الحجر مثلما يوفر لها النهر خامة الطوب. وارتفاع القطاع الشرقي يعوض عند البعد عن النهر بجفاف الهواء الصحي وحركته النشطة المنشطة، في حين يتمتع القطاع الغربي بجبهة مائية منعشة ومرطبة. وأخيرا فإن كثرة الجزر كثرة غير عادية في المنطقة- كنتيجة لتغير مستوى الإرساب فجأة مع الانتقال من الوادي الضيق إلى الدلتا الواسعة- هذه الكثرة توفر قواعد مهمة لعبور النهر ولنمو المدينة.

نمو القاهرة بين ضوابطه ومحاوره

في هذا الإطار الطبيعي الملائم إذن نستطيع أن نتتبع حركة المدينة التاريخية منذ العصر العربي. حين نشأت الفسطاط في أقصى الجنوب، قرب النهر والتل معا، فإنما كانت مدينة حربية أساسا، تنشد موضع حماية معلقا على التل ومحصنا بالطبيعة. فكانت في النتيجة مدينة أكر وبوليس، أي مدينة قمة تل. (ومن الطريف، وهو بالتأكيد أكثر من مصادفة، أن ديزموند ستيوارت مؤلف هذا الكتاب يذهب إلى حد تشبيه جامع ابن طولون على جبله بالبارثينون على الأكروبول في أثينا !) وحين بنيت العسكر إلى الشمال الشرقي منها، ثم القطائع على جبل يشكر في الاتجاه نفسه، وأخيرا القاهرة المعزية التي بدأت كمدينة ملكية محرمة، فإنها لم تغير تلك

الصفة الأكروبولية العسكرية أساسا، فكانت جميعها تلتزم السفوح التلية العالية في الشرق، وكانت تعززها بخط دفاع وحماية آخر هو أسوار المدينة المتعددة والمتعاقبة. وكل ما حدث أنها كانت تزحف في موضع جنوبي إلى موضع أكثر شمالية.

ومن الطريف، ما دمنا قد تحدثنا عن المدينة المسورة وسور المدينة، أن نلاحظ أولا أن مصر في هذا الصدد شذوذ عالمي نادر، وثانيا أن القاهرة بدورها شذوذ نادر في مصر نفسها.. ففي العصور الوسطى وعهد الإقطاع كانت المدينة المسورة هي القاعدة العالمية طلبا للحماية من الأخطار الخارجية والصراعات الإقطاعية الداخلية. ولكنّ حالات ثلاثاً فقط في العالم لم تكن تعرف أسوار المدن بفضل حمايتها الجغرافية الطبيعية وتصفية النظام الإقطاعي منذ وقت مبكر: تلك هي بريطانيا واليابان ومصر وكلها جزر حقيقية أو مجازا على ضلوع قارة يفصلها عن بحر الماء أو بحر الرمل. لقد كانت الصحراء- كما يعبر لويس ممفورد- هي السور الطبيعي لمصر. ولكنها لم تكن كذلك للقاهرة تماما. فقد كانت العاصمة بموقعها وأهميتها موطن الخطر الخارجي دائما والصراع الداخلي كذلك، فكان السور ضرورة إستراتيجية منذ البداية وتعددت أسوارها وتحصيناتها واتسعت مع نمو المدينة، وذلك حين لم تعرف المدن الإقليمية المصرية السور أو الحائط عدا بعض الموانئ الثغور.

هذا عن نمو المدينة في حضن التلال. وفي المراحل اللاحقة فقط بدأ يضاف إلى التوسع نحو الشمال، توسع في اتجاه جديد نحو الغرب. فمع نمو الأرض الطميية ونضجها الفيزيوغرافي على حساب النهر المتراجع غربا، بدأ الاستثمار الزراعي ثم البنائي العمراني يزحف غربا. لقد بدأت المدينة تنزل هابطة من الكنتورات المنخفضة بالتدريج. وبعد أن كانت تتشبث بضلوع التل ورأسه وتخشى الاقتراب من النهر حيث خطر الفيضان والاستبحار أو كما لو كانت تخجل منه- river-shy- أخذت تتحول من مدينة أكر وبوليس معلقة إلى مدينة نهرية شاطئية مستوية. لقد تحررت المدينة من عقال الجبل وإسار السور معا وفي الوقت نفسه.

وفي المحصلة، فلقد أخذت رقعة العمران والمنطقة المبنية تنمو في اتجاهين لا في اتجاه واحد، شمالا وغربا، أو قل على محور شمالي غربي عموما. وتلك هي الحركة التاريخية الأساسية والمفتاح في نمو القاهرة، وهي حركة مطردة وإيقاع ثابت، مهما توقفت المدينة أو انتكست في مراحل الجمود أو الانكماش.

وحتى أيام الحملة الفرنسية ومحمد على كان خط الحسينية- باب الشعرية- بولاق يمثل أقصى حدود امتداد المدينة شمالا، دون أن يعنى هذا بالضرورة أن كل ما إلى الجنوب كان عمرانا كاملا وسكنى متصلة، بل كانت هناك فجوات شاسعة تتخلل المنطقة المبنية ، ودون أن يعنى كذلك انعدام العمران المبعثر الخفيف إلى الشمال ولقد كان محمد على هو الذي بدأ العباسية عبر الحسينية. ومع ذلك فقد كان محمد على نفسه هو الذي بدأ الاتجاه إلى جاردن سيتي لتكون سكنا راقيا لعائلاته، بينما أن حي الإسماعيلية لم يبدأ إلا أيام إسماعيل والتوفيقية أيام توفيق.

وبالمثل فإن النمو الأساسي في نطاق مثل الفجالة- الظاهر- غمرة- السكاكيني، أي جنوب خط المترو ومحطة مصر، لم يتم حقيقة إلا بعد ١٩٠٠. وأحدث من ذلك كله بالطبع نمو الشمال الشرقي ابتداء من الدمرداش ومنشية الصدر عبر القبة بأقسامها ومنشية البكري حيث يتفرع إلى شعبتين: إلى الزيتون فالحلمية فالمطرية فعين شمس شمالا، وإلى مصر الجديدة جنوبا. وهذا يصدق أيضا على نمو الشمال ابتداء من روض الفرج إلى الساحل وشبرا (بأقسامها الحدائق والخيمة والمظلات والبلد). والشيء نفسه يقال عن الضفة الغربية حيث ظلت الجيزة مدينة متواضعة إلى بداية القرن الحالي، وظلت تنمو شمالا ببطء كشريط يزداد سمكا وعمقا، إلى أن دخلت في موجتها المدية مع وبعد الحرب الأخيرة حتى وصلت عبر الدقي والعجوزة إلى إمبابة في عروض تناظر عروض حي الساحل على الضفة الشرقية أو تكاد. وبعد أن كان عمران الجيزة يقع دائما" جنوب" القاهرة، أصبح يقع "غربها" نصا. وهنا نلاحظ أن نمو الضفة الغربية باستثناء بندر الجيزة هو نمو طارئ حديث جدا إذا قورن بالضفة الشرقية عموما.

وهنا لا تتأكد لنا حقيقة واحدة وهي أن النمو كله-على الضفتين- مندفع نحو الشمال، وإنما تتأكد كذلك حقيقة أخرى لا تقل مغزى وخطرا وهي أن النمو متوقف تماما إلى درجة الشلل في الجنوب، وفي الضفتين أيضا على السواء. فلم تتعد مصر القديمة حدودها المزمنة قرب أثر النبي، وكذلك الجيزة القديمة (البندر). وإذا كانت المعادي وحلوان على الضفة الشرقية تمثلان نموا حديثا وعصريا، حلوان منذ إسماعيل كمدينة استشفاء، والمعادي منذ توسعت وتوطدت جالية الاستعمار البريطاني، فإنها تمثل ضواحي منفصلة عن جسم المدينة ولا تنفض القاعدة بقد ما تؤكدها. وقل الشيء نفسه عن نمو منطقة الهرم حديثا، فهي أقرب إلى النمو الشريطي الخطي على أطراف المدن ribbon development

والخلاصة أن الحدود الجنوبية لجسم القاهرة تمثل الثوابت. الاستاتيكية constants في حركة المدينة، حيث تمثل الحدود الشمالية العوامل المتغيرة النامية والديناميـة variables وأن في مجرد الفرق في التسمية بين مصر القديمة في أقصى الجنوب ومصر الجديدة في أقصى الشمال لتلخيصا بليغا لكل تاريخ وحركة النمو داخل هذا المجمع المدني الحافل.

على أنه ليس يكفي أن نفسر هذا التناقض بين الشمال والجنوب بحتم الموضع المحلي وحده من اختناقه في الجنوب وانفساحه السهلي في الشمال. فلاشك أيضا أن ثروة الدلتا الغنية من زراعة وإنتاج، وانفتاحها بما يقع خلفها من مواني واتصالات خارجية تجارية، تمثل لاشك قطب جاذبية للعاصمة أقدر على تغذية صناعتها بالخامات وسكانها بالغذاء وأسهل اتصالا وأقدر على التصرف الخارجي. بل قد يمكن أن يقال إن نمو القاهرة شمالا في لسانية الأساسيين شمالا وشمالا شرقا هو انعكاس بعيد في نهاية المطاف لجاذبية الإسكندرية والسويس على الترتيب..

وإذا كان التناقض في قوة النمو واضحا صارخ الوضوح مابين الشمال والجنوب، فهو على الأقل حقيقة مؤكدة مابين الشرق والغرب أيضا. ففي الشرق حائط المقطم يقف حائلا منذ العصور الوسطى يخنق كل إمكانيات النمو، حتى في الوقت الحالي لا يمثل مشروع مدينة هضبة المقطم أكثر من محاولة رمزية. أما غربا فإن المدينة استعمرت النهر نفسه- أعني جزيرتي الجزيرة والروضة- ثم عبرته لتجعل من الضفة الغربية شقيقة صغرى للشرقية تناظرها طولا وأن دقت عرضا، ولتجعل من المجمع المدني كله مدينة ضفتين تمتطي النهر كما يقال a cheval. ومن المحتمل في المستقبل أن يرجح معد النمو في الضفة الغربية معدله في الضفة الشرقية نسبيا، لأن الأولى هي جبهة ريادة العاصمة الآن وطاقة أو كوة رئيسية لتمددها. ويمكن أن نعبر عن هذا بطريقة أخرى فنقول إن دفعة النمو إذا كانت اليوم أقوى نحو المحور الشمالي فقد تتحول في بضعة عقود إلى المحور الغربي. وقد وصل عمق الضفة الغربية اليوم إلى بولاق الدكرور في الجنوب وميت عقبة في الشمال، وربما واصل نموه إلى الخط الشرياني للسكة الحديدية بين الوجهين.

وعند هذا الحد نستطيع أن نرى بسهولة أن المدينة إذ تزحف شمالا في موجتها المدية العاتية، وبسرعة العاصفة في العقود الأخيرة خاصة، مع ثباتها المطلق في الجنوب، فهي إنما تنتقل بالتدريج مبتعدة عن الصعيد وملتحمة بالدلتا. إن الأصل

في القاهرة- عاصمة- أنها بموقعها ومصدر سكانها ووظائفها القومية وكضابط إيقاع بين أجزاء الوطن وأقاليمه، تنتمي إلى الدلتا بقد ما تنتمي إلى الصعيد. ولكن الواقع المحقق الآن أنها أدخل في فلك الدلتا وأشد التصاقا بها وزحفا إليها..

ذلك وكأنما هي تزحف تدريجيا مع رأس الدلتا (التي كانت إزاء منف وقت أن كانت العاصمة الفرعونية) والتي تزحف شمالا باستمرار. أو كأنما هي تزحف مع مصر الحديثة عموما، حيث يقتصر المعمور في أقصى جنوب الصعيد (منذ خزان أسوان ولكن بالأخص مع السد العالي)، ويتمدد في أقصى شمال الدلتا (مع استصلاح البراري الذي سيصل بالأرض الزراعية قريبا إلى سيف البحر). أو- أخيرا- كأنما هي ترمز إلى تناقص وزن الصعيد النسبي في اقتصاد مصر وعمرانها بالقياس إلى الدلتا (الصعيد الآن لا يقدم إلا ٣٨٪ من عائد الزراعة المصرية)..

وهذا ما يقودنا إلى وجه شبه آخر في الشكل بين نمو القاهرة الكبرى وامتداد الأرض السوداء في مصر. إذا أنت نظرت إلى خريطة القاهرة فلن تخطئ بالتأكيد شكلها الكأس الخاص، فهي أولا وأساسا مدينة طولية أكثر منها عرضية، فبينما يصل امتدادها على المحور الطولي إلى نحو ١٣ كم، لا تزيد في أقصى عرض لها عن ٧ كم، وتقل عن ذلك كثيرا في المتوسط وقد تصل إلى حد الاختناق في أقصى الجنوب. وبينما يأخذ النيل محورا شماليا جنوبيا بعامة، ينفرج الخط الواصل بين مصر القديمة ومصر الجديدة إلى أقصى حد ممكن.. ويلاحظ أن جبهة الزحف شمالا لا تمثل خطا واحدا منتظما، بل يتقعر في وسطه لأنه يتقنل أساسا في محورين هما كتلة مصر الجديدة - عين شمس في الشمال الشرقي وكتلة شبرا- روض الفرج في الشمال، هذه بحذاء الصحراء وهذه بحذاء النيل، وبين هذين اللسانين برزخ أو خليج عريض من الأرض الزراعية.

الشكل إذن مروحي بوضوح، تكمن خلفه ضوابط الموضع وتضاريسه الأولية سواء أخذنا الضفة الشرقية على حدة أو إذا أضفنا إليها الغربية. وهذه إذن مروحة منشورة مفتوحة، يدها في الجنوب. وهذا يذكرنا على الفور- وإن يكن على تصغير شديد- بشكل الدلتا نفسها. وحتى لسانا النمو الشماليان السابق ذكرهما يكملان التشبيه بفرعي دمياط ورشيد ! بل إننا إذا أضفنا الذيل المبتور من النمو المتقطع على استحياء في الجنوب عبر المعادي وحلوان كيد قصيرة لمروحة العاصمة، لاقتراب الشكل جميعا من هيئة مصر عموما حيث يرسم الصعيد يدا طويلة جدا، ولكنها

ليست قوية جدا، لمروحة الدلتا. إن عاصمتنا لاتلخص كيان مصر البشري فحسب، وإنما تختزل شكلها الجغرافي أيضا في بقعة أو في كبسولة.

ماذا إذن عن توسع ونمو القاهرة الرأسي، بعد ذلك النمو الأفقي الطاغي؟ معه جنبا إلى جنب تقدم بإيقاع متناغم. فتاريخ المدينة لم يكن تمديدا للأطراف فحسب بل وتكثيفا للداخل أيضا. ولقد أتى على القاهرة حين من الدهر كانت تتخلل منطقتها المبنية فجوات وفراغات ضخمة من الخراب أو الخواء، وحتى أوائل القرن الماضي كان جسم المدينة مبعثرا مخلخلا غير ملموم، ولكنه أخذ يلتئم بالتدريج. وبينما كانت الأطراف تنمو كفيّلات مبعثرة وسط الحقول، كانت الفيّلات في الوسط تتحول إلى عمارات، والعمارات تتناطح وتتلاحم وتتسابق إلى أعلى كما لأشجار في الغابة تتصارع من أجل الوصول إلى الشمس. وبين هذا وذاك جميعا توشك المدينة أن تغص وتختنق ولا تكاد تجد رئة خضراء أو مساحة مكشوفة. والناظر إلى خريطة المنطقة المبنية اليوم في القاهرة قد يحسب خطأ أن بها فراغات غير مستغلة كتلك التلول المتقدمة في عين الصيرة وزينهم وقطع المرأة في شرق المدينة. ولكن الحقيقة أن هذه حدود المنطقة المبنية هناك، وإنما تفصل بين مدينة الأحياء ومدينة الأموات، أما المنطقة المبنية فكتلة متصلة لا انقطاع لها. وفي ختام هذا الحديث عن النمو، لابد من وقفة تجيب على سؤال ملح: ما الذي أطلق المدينة من عقلها، لاسيما منذ القرن الماضي، كمارد خرج من القمقم؟ لقد ظلت المدينة الوسيطة تحتل رقعة متواضعة محدودة في شرق المنطقة، ولم تخرج من قوقعتها التاريخية والجغرافية إلا في أواخر العصور الوسطى وعلى استحياء ذلك. ثم مع القرن الماضي فقط تمددت تمددا جديدا تماما صوب النهر، ولم تزل خطاها تتسارع باطراد في العقود الأولى من هذا القرن، ولكنها منذ الحرب العالمية الثانية وحدها انفجرت في مواجهة مدية حقيقية هي منذ الثورة أسرع وأعتى منها في أي وقت مضى. ونحن نستطيع أن نصنف هذه الفترات في تاريخ حياة المدينة إلى مراحل ثلاث أساسية: الأولى هي المرحلة النووية، والثانية هي التكوينية، والأخيرة هي الانفجارية.

ولعل رقعة القاهرة قد نمت في القرن السابق للحرب الثانية أي في المرحلة التكوينية أكثر مما نمت طول الألف عام منذ نشأتها العربية أي في المرحلة النووية، بينما قد يزيد نموها بسهولة في مرحلتها الانفجارية في ربع القرن الأخير عنه طوال القرن الأسبق عليه. لقد خرجت القاهرة عن وصاية الجبل الأبوية، وانساحت من المقطم

إلى الهرم، ومن الصحراء إلى الصحراء، ومن حلوان إلى شبرا الخيمة، وبعد أن بدأت بحدود صارمة كالخط الهندسي هي سور المدينة أصبحت تتخلل المزروع وتخلخله كمدينة بلا حدود. ومن السهل أن نتتبع انعكاس هذا كله رقميا في تعداد السكان، ولكن يكفي هنا أن نذكر أن المدينة التي بدأت مع محمد علي ربع مليون وانتهت معه ثلث مليون، قد تعدت الآن خمسة ملايين. مرة أخرى: لماذا، وما الزناد الذي أطلق هذا النمو المريد؟ ثمة على الترتيب عاملان ضابطان أو محركان، لا يكفي أي منهما وحده تفسير إلا لمرحلة محددة. الأول هو الموضوع والثاني هو المواصلات. فمن السهل أن نرى أن النمو في المرحلة النووية يتفق مع نمو رقعة الموضع تجاه النهر ومع تراجع النهر نحو الغرب بالتدريج. ولكن لاشيء يفسر المرحلة التكوينية، فضلا بالتأكيد عن الانفجارية من بعدها، إلا ثورة المواصلات الحديثة. فحتى محمد علي، كانت الدواب هي وسيلة النقل الأساسية داخل المدينة، والمركب الشراعي وسيلته خارجها. كان نفس الحركة البشرية قصيرا للغاية، ومعه كان توسع المدينة قاصرا بالضرورة. ثم بدأت سلسلة تاريخية: من الدواب إلى عربات الخيل إلى خطوط "سوارس" المنتظمة إلى الترام ثم أخيرا السيارة الخاصة والعامة. وحدود القاهرة العمرانية في أي لحظة خلال هذه المرحلة هي وظيفة لهذه الوسيلة أو تلك.

ثم سؤال آخر وأخير ينبثق من سابقه: هذا النمو، هل هو صحي سليم تماما؟ أيسير في أنسب خطوطه واتجاهاته الأكثر ترشيدا؟ لن نقف هنا عند قضية تضخم العاصمة في جسم البلد حيث بلغت خمسة ملايين من ثلاثين مليونا أو يزيد، ولن نقول "الورم الأكبر" the great wen عن لندن في عصر الصناعة. فمن cobbet كما قال كوبت wen المحتمل جدا أن القاهرة تعاني من إفراط المتروبوليتانية مثلما تعاني مصر نفسها من إفراط السكان بعامة. ولكن لعل أخطر من هذا النمو - الشيطاني نوعا mushroom - ملمح مزمن قد يحمل شبهة النمو السرطاني ذاته.

والإشارة هنا هي يقينا إلى توسع الرقعة المبنية على الأرض الزراعية الثمينة في عالم جغرافي متناه يعاني من مجاعات أرضية. فكثير من أبناء القاهرة يذكرون ولا شك في مدى عمرهم آلاف الأفدنة الزراعية في شبرا والجيزة (بمعناها الواسع) وكيف كانت طرق المواصلات والترام تمضي لأميال وسط مزارع ومشاتل الفواكه والزهور والخضروات الكثيفة، ظلت تتضاءل وتنكمش بالتدريج وظل بعضها يقاوم كجزر صامدة وسط بحر المباني. ولكن هذا كله تحول اليوم إلى مبان كثيفة ونفيت

الزراعة إلى آفاق بالغة التطوح والبعد. وإذا كان هذا لا يصدق على لسان النمو في اتجاه مصر الجديدة فهو للأسف صادق على شعبته الثانية في اتجاه عين شمس حيث لا يحاذي امتداد العمران حافة المزروع وإنما يترامى عليه، لا يجاوره بل يجاوزه.

إن المدينة تأكل سكانها كما يقال، ولكنها هنا تأكل أرضها أيضا، فهي من قوارض الأرض الزراعية، وبشراهة ذلك. وقد آن أن يكون الرمل للعمران والطين للزراعة. وفي شمال شرق القاهرة تجاه العباسية ومدينة نصر ومصر الجديدة محور الرمل الأنسب، بينما قد يكمن الحل بعد ذلك في الضواحي المنفصلة فيزيقيا عن جسم المدينة بحيث تقوم لا في عرض الوادي وإنما على حافتي الصحراوين، لاسيما على طول مخارج المدينة الأساسية في طريقي الإسكندرية والسويس الصحراويين.

شبكة الخطة وشبكة المواصلات

حتى النظرة العابرة إلى خريطة القاهرة، بشبكة شوارعها ومربعاتها السكنية، لا يمكن أن تخطئ ثلاثة ملامح بارزة في خطة العاصمة. أولها وجود عنصرين أساسيين يتقاسمان رقعة المدينة: تخطيط- أو بالأصح لا تخطيط- عشوائي تلقائي يمثل النمط العتيق في المدن بل والقرى المصرية عامة، ويمثل في العاصمة مناطق النواة القديمة منها، وتخطيط هندسي مصمم منتظم في أشكال مربعة أو مستطيلة أو مضلعة أو دائرية، يمثل بدوره العنصر العصري" الأوروبي" الجديد في تركيب المدن المصرية الذي أدخل منذ القرن الماضي فقط. وهذه الثنائية الأساسية في الخطة ترمز بسهولة وبلاغة إلى الثنائية الحضارية في مصر المعاصرة حيث يتعايش القديم والجديد والأصيل والدخيل.

الملمح الثاني هو سيادة مساحة التخطيط الهندسي الحديث سيادة حاسمة بالنسبة إلى مساحة اللا تخطيط العشوائي القديم. وقد يبدو هذا غريبا نظرا لحداثة عهد التخطيط الهندسي المنتظم، ولكنه في الحقيقة يلخص- في نظرة- قصة نمو المدينة الحديث حيث وجدنا أن الرقعة الكبرى من كتلة المدينة هي أساسا بنت القرن الأخير والمرحلتين التكوينية والانفجارية في تاريخها. أضف إلى هذا كثيرا من عمليات التقويم والتهذيب الهندسي فرضت على رقع واسعة من مناطق التخطيط القديم، مما يخفف من انتشارها وإن لم يخف آثارها. ثالثا،وأخيرا، فمن الواضح أن مناطق الخطة العشوائية القديمة تنحصر أساسا في أطراف المدينة القديمة لاسيما في

الشرق والجنوب، وإن وجدت منها جيوب شاذة في الشمال أو الوسط. وعلى أية حال، فإن هذا الوضع أوضح جدا في الضفة الغربية منه في الشرقية،حيث يقتصر هناك على أقصى الجنوب بصرامة ويسود التخطيط الهندسي كل الشمال. ويعني هذا في الوقت نفسه أن القديم يرتبط بالكنتورات الأعلى من المدينة، بعكس مناطق التخطيط الهندسي الحديث.

وهذا الملمح الأخير كله يتفق إلى حد كبير مع قانون الخطة في المدينة المصرية عامة، حيث تجد دائما كتلة قديمة عشوائية في القطاع الجنوبي تقوم على ربوة صناعية مرتفعة محدبة كطبق مقلوب، بينما تترامى تحت أقدامها في القطاع الشمالي وعلى مستوى الأرض الطبيعي رقعة من التخطيط العصري المنتظم. فالقطاع الجنوبي هو نواة المدينة قبل العصر الحديث، والشمالي هو النمو الحديث في القرن الأخير. وتتناسب مساحة كل من القطاعين إلى الأخر بحسب خطة المدينة من النمو والتضخم في الفترة الحديثة. أي أنه كلما زاد نمو المدينة ودرجة انفجار هذا النمو، قلت نسبة مساحة النواة العشوائية القديمة إلى مساحة التخطيط الهندسي الحديث، والعكس.

في ضوء هذه المؤشرات الأساسية، يمكننا الآن أن نتتبع خطط القاهرة بشيء من التفصيل.. ولنبدأ باللاتخطيط القديم. هذا نوع من الخطة البدائية الفطرية التي تظهر تلقائية غير عامدة، خطة بلا تخطيط كما قد نقول، تبرز من مجرد تجمع المباني معا. وهي في جوهرها خطة القرية المصرية والتي لا تخلو تماما من منطق، بل ومنطق هندسي، ولكنه باهت بالغ التقريب. فثمة حول الحلة طريق دائري ولكنه غير منتظم (داير الناحية) تخرج منه إلى قلب المنطقة المبنية عشرات من الطرق الضيقة والحارات التي تنتهي إلى نهايات مسدودة في قلب البلد- أي أزقة مغلقة- والتي تتلوى وتتفرع وتتخلل الكتلة المبنية بدرجة أو بأخرى. والعشوائية بادية لا شك فيها، ولكن خلفها تكمن جرثومة الخطة المتشععة أو الدائرية المتشععة بصورة أو بأخرى Radio-comcentric.

وتنتشر هذه الخطة البدائية أكثر ما تنتشر القطاع الشرقي والجنوبي من القاهرة شرق النيل ابتداء من باب الشعرية والأزبكية والظاهر والحسينية في الشمال، حتى السيدة زينب وطولون والسيدة نفيسة جنوبا. ثم تعود فتظهر في مصر القديمة في أقصى الجنوب. وهذه بالفعل هي القاهرة القديمة والأحياء التاريخية والتقليدية التي تستمد طابعها من ضيق الأزقة والحواري المسدودة والتوائها وتعرجها الشديد، الذي

يضاعف منه تضرس الطرق بسبب الوضع التلي وتحولها أحيانا إلى طرق سليمة، والذي يضاعف بدوره من كثافة المساكن والسكان ودرجة التزاحم. والكل ينتهي إلى تيه لابرنتي من شبكة طرق لا تصلح للمواصلات الحديثة بحال. من هنا كان التهذيب والتقويم بتوسيع وفتح كثير من الحارات والشوارع، أي بعملية فرض أو مزاوجة مفروضة بين اللاتخطيط والتخطيط. والواقع أن هذه العملية واسعة الانتشار في كل هذا النطاق.

ومن طريف المفارقات هنا أن نلاحظ أنه بينما تبدو أحياء شرق القاهرة ضائعة في خطتها المضطربة العشوائية نجد إلى الشرق والجنوب منها توا أو وشيكا مساحات من التخطيط الهندسي النظيم الدقيق تغطي رقعة كبيرة من خريطة المدينة. على أن هذه لاينبغي أن تخدعنا، فإنما هي مدينة الأموات- المقابر والجبانات المترامية في حي الخليفة وفي قايتباي والغفير- التي تقسمها شوارع منتظمة مهندسة وتحمل كما لاحظ ديزموند ستيوارت بدهشة أسماء وأرقاما!

ثم نعود فنقابل توزيع الخطة العشوائية تلك، مع نفس محاولات التعديل وجراحة التجميل التي يفرضها تنظيم العاصمة، في حي بولاق، حيث يبدو كجزيرة شاذة وسط التخطيط الهندسي، ثم لا نلقاها بعد ذلك إلا عبر النهر في أقصى الجنوب من الضفة الغربية، أي في نواة الجيزة القديمة(البندر) حيث تتنافر بوضوح صارخ مع بقية التخطيط الهندسي المنتظم إلى الشمال. وإذ ننتقل إلى التخطيط الهندسي الحديث، الذي يغطي بقية رقعة العاصمة فيما عدا بعض جزر وأسافين قزمية متفرقة من التخطيط العشوائي على أطراف المدينة هي القرى والعزب السابقة التي أغرقها وابتلعها المد الحديث، كمنية السيرج وبعض العزب المبعثرة في شمال شبرا، وقرى كإمبابة وميت عقبة وبولاق الدكرور في الضفة الغربية، إذ ننتقل إليه نجد صورة مختلفة تماما، بسيطة جدا ولكنها بالغة التعقيد جدا. فالمدينة هنا عبارة عن موزا يكو لانهائي من واحدات مساحية ذات أشكال هندسية منتظمة تتراوح بين المربع والمستطيل وقليلا ما تجنح إلى الدائرة أو المضلع. ولكنها دائما خطوط هندسية وزوايا قائمة تتألف من مربعات سكنية مماثلة في هندسيتها. أم التعقيد فمصدره أن هذه الأشكال المنتظمة القائمة الزوايا لا تتبع في توجيهها بالنسبة للجهات الأربع الأصلية محورا واحدا باستمرار، كما هو الحال في المدينة الأمريكية مثلا، وإنما تتبع- حرفيا- عشرات وعشرات من المحاور التي تختلف من رقعة إلى أخرى،

وتستقل بها كل واحدة عن الأخرى كأنها صفحة ألغاز jig- saw. ومن هنا قلنا بسيطة ومعقدة في آن واحد. ولا يستثنى من ذلك إلا المعادي وحلوان حيث محور توجيه الخطة المربعة الصارمة موحد بصرامة أكثر في كل المنطقة المبنية.

وإذا كانت المحاور القاعدية التي تحكم تلك الرقع الشطرنجية اللامتناهية متنافرة كل التنافر، فالمهم أنها لم تتحدد اعتباطا، بل هي من وحي وتوجيه ضابطين أساسيين: النهر؛ ذلك الشريان المحوري الذي تطل عليه واجهة كبيرة من المدينة، والشوارع الرئيسية، أي الطرق الشريانية التي تفتح الأحياء وتمثل مفاتيح الحركة فيها وبينها.

فأما النهر فموجه حاسم وحتمي. فسواء على الضفة الشرقية أو الغربية، ولكن على الأخيرة بالأخص، يجري عدا الكورنيش وبعده شارع رئيسي (ممتطيا ظهر جسر الطراد عادة) يمتد بطول النهر ويحاذيه، كشارعي الجيزة والقصر العيني على الترتيب. ولما كان للنهر تعرجاته وانحناءاته، فإن ذلك الشارع يتبعها بأمانة. وكذلك تفعل الشوارع الثانوية الموازية إلى الداخل. ولما كانت الشوارع العريضة عمودية على الطولية، فإن شبكة الشوارع برمتها تظل تتفاوت وتتغير في محاور اتجاهاتها الأصلية من قطاع إلى آخر حسب تعرجات النهر الحاكمة.

خذ كل الضفة الغربية من الدقي حتى إمبابة، ولن تجد لهذه القاعدة تبديلا. وكذلك الشرقية جنوب ميدان التحرير وبعمق سكة حديد حلوان: الشوارع الطويلة تحاذي النهر، والعريضة تتعامد عليه وعليها. وبالمثل في جزيرة الروضة، حيث توازي الشوارع الطولية شاطئ الجزيرة الاثنين، حتى إذا ضاقت الجزيرة في الجنوب تبعت الخطة محور أحد الشاطئين دون الآخر، فتتكون شرائح مثلثة شاذة. والشيء نفسه واضح في فم الخليج وأبو السعود شمال مصر القديمة، مثلما هو في الشمال في روض الفرج والساحل عموما.

أما عن أثر الشوارع الرئيسية على الخطة فأوضح في الداخل، بعيدا عن أثر النهر. فهذه تصبح العمود الفقري الذي تركب عليه - بزوايا قوائم - تفاصيل الخطة الهندسية، فإذا انحرف العمود انحرفت معه واتجهت بحسب توجيهه. أما مسارات تلك الشرايين فتحددها الواقع النسبية بين النقط الإستراتيجية في المدينة، أو ربما ضوابط المواضع القديمة كالترع الحفرية التي ردمت وتحولت إلى بوليفارات وجادات رئيسية كالخليج المصري (شارع بور سعيد الآن) والترعة البولاقية (شارع الترعة البولاقية).

والأمثلة عديدة. ففي شبرا محور مستقيم هو شارع شبرا، ومحور منحرف هو شارع الترعة البولاقية، وكل تفاصيل الخطة المربعة في الحي برمته تعكس اتجاه كل منها. ولكن المثل الكلاسيكي هو شمال شرق القاهرة ابتداء من غمرة والظاهر حتى مصر الجديدة وعين شمس، حيث المحور الحاكم هو مترو خط الضواحي. ففي كل هذا النطاق المترامي ستجد خطط الشوارع كلها مربعات منتظمة، ولكن على عديد من المحاور المتنافرة جدا. غير أن هذه جميعا إنما تتحدد بدورها بنقط ارتكازها أو قل مفاصل ارتكازها على طريق المترو، الذي ينحني ويتعرج حسب مساره ووجهته. والنتيجة أن منطقة مثل غمرة تأخذ مربعاتها السكنية محورا يوشك أن يكون شرقيا غربيا، بينما أن منطقة كالمطرية وعين شمس ينقلب فيها المحور إلى شمالي جنوبي، في حين يعتدل فيما بينهما بالتدريج كالبندول.

هذا، وتمثل الزمالك- نصف الشمالي من الجزيرة- حالة طريفة، ففيها يجتمع أثر النهر والشارع ليدمغا الخطة بطابع فذ. فالشوارع الطولية تتبع محور الشارع الرئيسي الحاكم الذي يقطع الجزيرة بين كوبري٢٦ يوليو(أبو العلا) وكوبري الزمالك، وبذلك تتقاطع الشوارع الطولية والعرضية بزوايا حادة لتترك بينها أشكالا هندسية نادرة كالمعين وشبه المنحرف..إلخ، بينما إلى الجنوب من شارع الكوبرين تسود شبكة مربعات منتظمة تتوازى معه وتتعامد عليه نصا.

وينبغي لنا أخيرا أن نذكر نمطا خاصا ومحليا من التخطيط الهندسي، لا يتبع مبدأ الزوايا القائمة بقدر ما يتبع الدوائر المتقاطعة والأقواس المتداخلة. ونعني بهذا خطة الحدائق الإنجليزية English gardens، التي تنحدر أصلا عن فن تخطيط البساتين Landscape gardening ففي جاردن سيتي وحدائق القبة نجد خطط الشوارع كأقواس منحنية أو كدوائر متقاطعة متعددة المراكز. وبقدر ما تعطي هذه من منظور معماري فخم ومبان انسيابية في لاندسكيب الحي، تعطي من مشاكل المواصلات. فهاتان المنطقتان متاهتان من أشق قطاعات العاصمة لسكانهما ولغير سكانهما على ما نعلم.

وإذا نظرنا إلى مناطق التخطيط الهندسي في العاصمة بعامة، أمكننا أن ندرك من تعدد محاور توجيه قطاعاتها المحلية أنها لم تخطط أو تنشأ في ظل خطة عظمى موحدة بل أتت بالقطاعي مع النمو الجزئي. ولهذا فهي تترابط وتتماسك مع بعضها البعض بطريقة رديئة مفككة غالبا، والأغلب أن تترك فيما بينها مساحات وجذاذات شاذة الشكل أو حادة الزوايا.

وصحيح أن هذا التعدد والتنافر في محاور التوجيه يخفف من تنميط الخطة ورتابة الأحياء والشوارع، كما يعني تعدد التوجيه بالنسبة للشمس وللرياح فيعطي فرصا أكثر للتهوية والإشعاع والظل، كما يمنع تحول المدينة إلى تيارات للرياح الشمالية السائدة مثلا. ولكن نقطة الضعف الكبرى أنه يترك ترابط المدينة العضوي عن طريق المواصلات ضعيفا مفككا. وينم عن هذا ويشي به محاولات موضوعية هنا وهناك لفرض مجموعة من الشوارع المتشعبة على بعض تلك الخطط الهندسية المربعة، تتحول بها إلى شيء أشبه بالخطط الدائرية المتشعبة أو قل المضلعة المتشعبة، كما في الإسماعيلية في وسط البلد وكما في وسط الروضة وفي العجوزة ثم السكاكيني بالظاهر، ولكن بالأخص في مصر الجديدة.

غير أن هذا غالبا ترقيع موضعي أو تحايل محلي، ومن المحقق أن القاهرة نمت بالقطاعي ولصقت أجزاء خطتها إلى بعضها بالتقسيط وبلا إطار عام. فإذا أضفنا إلى ذلك مشكلة المناطق العشوائية المختنقة، مع ضخامة رقعة العاصمة عموما، لكان حقا أن يقال إن القاهرة من المدن التي يصعب التعرف على أجزائها والحركة فيها. ولكن هذا أدخل في باب المواصلات، وهو ما ينقلنا إلى شبكة النقل العاصمية.

* * *

وعلى الرغم من بعض الشوارع الرئيسية التي تحاول أن تصحح أخطاء الخطة المربعة المتعددة المحاور وأخطاء اللاتخطيط العشوائي، إلى أننا لا نستطيع أن نتحدث عن خطة فوقية متشعبة على مستوى العاصمة ككل. وهناك أكثر من بؤرة تتشعع منها مجموعات من الشوارع الرئيسية هي التي تتبناها خطوط المواصلات شبكة مفضلة لها. ولعل أهمها محطة مصر حيث تخرج منها شرايين شارع شبرا شمالا، وبولاق غربا، والجلاء جنوبا بغرب، الجمهورية جنوبا(إبراهيم سابقا)، ثم شارع رمسيس بوابة وعنق زجاجة كل الضواحي شمال شرق المدينة: شارع الجيش إلى العباسية، شارع الموسكي- جوهر إلى الجمالية، شارع الأزهر إلى الغورية والدراسة، شارع القلعة إلى القلعة والخليفة. وميدان باب اللوق والسيدة زينب بؤر أخرى.

على أن هذه الحزم المتشعبة لا تؤلف فيما بينها خطة متشعبة بمعنى الكلمة، ولو أن الملاحظ أن شبكة خطوط الترام كانت تقليديا وحتى قريب تنتخب لها من الشوارع ما يرسم خطة متشعبة بارزة، لاسيما من مركزين هما ميدانا محطة مصر والسيدة زينب.

وعدا هذا فينبغي لنا أن نلاحظ أثر مواقع الكباري النهرية على تقنيل شبكة المواصلات. فعلى جانبي النهر في كل من كوبري التحرير وكوبري الجلاء يتحدد موقع حزمة كثيفة من محاور الحركة والنقل، بل إن كلا من هذين الميدانين يشكل في الواقع بوابة ضفته الحقيقية على النهر. ومثل هذا يقال عن كوبري ٢٦ يوليو والزمالك في الشمال، وكوبري الجيزة والملك الصالح في الجنوب، بدرجات متفاوتة. والحقيقة أن مواقع هذه الكباري المتناظرة والمترابطة، التي هي أعناق الزجاجة الحاسمة والخانقة بين ضفتي النهر، هي التي تحدد معظم الشرايين العرضية التي تقطع المدينة من طرف إلى طرف. والتي تعاني القاهرة من قلتها بوضوح. ولأن القاهرة مدينة طولية أكثر منها عرضية، فإن أهم محاور وشرايين الحركة هي الشمالية الجنوبية التي تخترق بالضرورة قلب المدينة فيختنق بها. وهذا هو المحرك الأساسي خلف فكرة إنشاء طريق دائري يلف بأطراف المدينة دون أن يخترق قلبها، كما يتمثل في شارع بورسعيد، أطول شوارع القاهرة الآن، والذي يرتبط أساسا بشرق المدينة القديم، وكذلك شارع صلاح سالم الذي شق حديثا.

من كل هذه الزوايا يتضح لنا بجلاء أن مشكلة المواصلات في العاصمة لا انفصال لها عن مورفولوجيتها وهيئتها الجغرافية البحتة. ويقف في مقدمة هذه الضوابط الجغرافية اثنان. أولا، انشطار المدينة إلى شقين أو ضفتين، الأمر الذي يجعل على الفور من كباري النهر أخطر نقط إستراتجية حرجة في تدفق الرحلة اليومية إلى العمل. ثانيا، اتخاذ أطراف المدينة الشمالية شكل لسانين أو مثلثين ضخمين في شبرا-روض الفرج، وفي مصر الجديدة- عين شمس، يتصلان بجسم المدينة في أضيق رؤوسهما، أي بأعناق زجاجية مختنقة على التو. وهذا النمط بارز جدا في الحالة الأخيرة خاصة حيث تبدو كمثلث مسحوب مدبب يكاد يكون منفصلا إلا من عن عنق دقيق عند كوبري القبة. في كل هذه المواقع بنوعيها، كباري النهر وأعناق الضواحي، تتأزم مشكلة المواصلات إلى حد الاختناق. على أن الذي يضاعف منها أن كل تلك الأطراف في الضفة الغربية عموما وفي شمال الضفة الشرقية هي باستثناءات معينة أحياء سكن أكثر منها أحياء عمل. ثم هي تتضاعف مرة أخرى كالربح المركب بطبيعة هذه الأحياء. فإن كانت شعبية لا تملك كثافة السكان العالية التي تنعكس على وتترجم إلى كثافة السيارات العامة (لسان كتلة شبرا-روض الفرج) . وإن كانت سكنا راقيا أقل كثافة سكان، فهناك كثافة السيارات الخاصة (لسان الشمال الشرقي، والضفة الغربية)

ولا تقل شبكة الخطوط الحديدية داخل المدينة مغزى وخطرا عن شبكة النقل الأخف. ويمكن ابتداء أن نزعم أن محطات السكك الحديدية في المدينة المعاصرة هي بمثابة بوابات مدينة العصور الوسطى وإنما انتقلت من السور الهامشي إلى الوسط. إنها "مداخل المدينة ولكن في الداخل. ولعلها أكثر من مصادفة أسماء "باب" الحديد، و"باب" زويلة أو "باب" النصر مثلا.

ومواقع محطات السكك الحديدية في القاهرة إستراتجية تماما، فمحطة مصر؛ (وكوبري الليمون التابعة) ومحطة باب اللوق تحتل مفاتيح المدينة الجغرافية، وتخرج منها الخطوط القومية أو خطوط الضواحي في اتجاهات ثلاث، شمالا شرقا وجنوبا.

ومهم أن نلاحظ أن كلا منها يضاعف بمحطة مركزية كالخلية العارمة لشبكات الأوتوبيس، فهي أقطاب مغنطيسية للمواصلات عموما ونقط انقطاع وتغيير في وسيلة المواصلات (من السيارة إلى القطار أو العكس) . غير أن هذا مما يفاقم من مشكلة الازدحام، بمثل ما أن خطوطها الحديدية تمزج نسيج المدينة وتخلق اختناقات حادة في تدفق حركة المرور كما يتبلور خاصة على طول خط مترو شمال شرق القاهرة.

وقد انعكس تأزم مشكلة محطات السكك الحديدية في المدينة في أن التكامل والتعايش بين القطار في محطة مصر حيث نقلت محطة أوتوبيسات الأقاليم بعيدا إلى أطراف المدينة في شبرا المظلات بعد معركة تخطيطية محتدمة بين عوامل الطرد والجذب المركزية. أما في محطة باب اللوق فيبدو أن القطار هو الذي سيخسر الحرب، إذ تقرر مبدئيا في مشروع خطوط الأنفاق المزمع أن تنقل نهاية خط الضواحي جنوبا إلى كوبري الملك الصالح.

من كل هذه الخيوط المعقدة إذن تنسج مشكلة المواصلات إخطبوطها الخانق المزمن في العاصمة التي يئست نهائيا من الحلول السطحية -أعني على سطح الأرض- فلجأت إلى الحلول تحت الأرضية كما تتمثل في فكرة مترو الأنفاق الذي يعكس مشروع خطة المبدئية شكل المدينة الطولي أساسا. إلا أن جذور المشكلة تكمن في أكثر من قضية، منها الفارق الحضاري: فشوارع المدينة خططت في عصر - ولعصر- ما قبل السيارة وما قبل الصناعة، وهي الآن تعاني بالضرورة من تصلب الشرايين واحتقان الدورة الدموية.

ولقد أثبتت تجربة العواصم الكبرى المماثلة أن خطوط الأنفاق ليست بالضرورة الكلمة الأخيرة في القضية، ولا تلبث مشكلة المواصلات السطحية أن تعود. فلندن

وباريس تملكان خطوط إنفاقهما منذ عقود وعقود. وكذلك نيويورك، ومشكلة المواصلات السطحية لم تزل مزمنة. ولعل بعض الدرس المستفاد هو أن القاهرة الكبرى بحاجة حقيقية -مع أو قبل الأنفاق- إلى عملية" همسنة haussmannisation، كما تسمي، على غرار ما عرفت باريس في السبعينات الماضية، جريئة واسعة الخيال دون أن تكون راديكالية بتارة بالضرورة فتفرض على أرضية خطتها الفسيفسائية نظاما متشععا، متعدد البؤرات- منعا لتركيز المشكلة في نقطة واحدة- من البوليفارات المحورية الشريانية ذات التوقيع الإستراتيجي بحيث تتحول هيدرولوجية النقل في قلب المدينة إلى نهر قليل الروافد كثير المصاب.

كذلك لا مفر من إعادة توزيع العمل والسكن في محيط القاهرة الكبرى. فتركيز العمل في القلب التجاري المركزي (C.B.D كما يسميه الأمريكيون) وغيابه إلى حد بعيد في الأحياء السكنية في الأطراف عامل جذري وقاعدي. ولعل من الضروري أن يتحول قلب المدينة نفسه هو الآخر إلى نهر قليل الروافد كثير المصاب، بخلق نويات جديدة في الأطراف كمراكز ثانوية subcentralisation، تخفف الضغط عن القلب المركزي وبالتالي تخفف من كثافة الرحلة إلى العمل.

التركيب الوظيفي

المدينة أي مدينة حزمة من الوظائف في التحليل الأخير، وليست المؤسسات والمباني إلا أوعية مادية لتلك الوظائف المركزية.. غير أن هذه لا تتعايش معا إلا بعد صراع على المكان، فالوظائف تتنافس فيما بينها على الموقع والموقع الممتاز أو الأنسب من جهة نظرها، وتحصل عليه الوظيفة الأقدر التي تدفع أكثر. ولما كانت قيم الأرض والعقارات والإيجارات أعلى ما تكون في قلب المدينة الضيق المكتظ، فإن وظائف المدينة تتنضد (أي تتفنط) تلقائيا بالتفاعل والشد والجذب بين مجموعة من القوى الطاردة المركزية centrifugal تطرد الأضعف إلى أطراف المدينة، وبين مجموعة من القوى الجاذبة المركزية centripetal تجذب الأقوى إلى القلب

والوظائف مجموعتان عريضتان: وظائف عمل وإنتاج كالتجارة والإدارة والصناعة، ووظائف خدمات كالتعليم والدين والصحة والترفيه. غير أن بين المجموعتين حلقة وصل مهمة هي السكن. والسكن وظيفة بالمعنى الصحيح لا شك، بل هو الوظيفة التي تغطي أكبر رقعة من مساحة أي مدينة في العادة. ومصدر

أهميتها أنها المفتاح والمدخل الطبيعي لوظائف الخدمات، فهي غالبا الإطار الذي ىدور فيه وتتشكل به قليلا أو كثيرا. ومع ذلك فالسكن وظيفة من نوع خاص جدا، ربما قلنا وظيفة سالبة تمييزا لها عن الوظائف الموجبة من إنتاج وخدمات. ولهذا فلعل من الخير لنا أن نعالجه على حدة بحسبانه طبوغرافية المدينة الاجتماعية، حيث تمثل الوظائف الموجبة طبوغرافيتها الاقتصادية.

* * *

وفي القاهرة، إذا بدأنا بالوظيفة التجارية التي تلعب دورا حيويا في كيانها كعاصمة قومية فضلا عن كونها مدينة كبرى، أمكننا أن نميز بين ثلاثة أنواع من التجارة تمثل في الحقيقة ثلاث درجات من المركزية. فهناك أولا التجارة المركزية التي تتكدس وتتزاحم بلا هوادة في قلب المدينة. ويلمس القاهرة نبض التجارة المركزية في مدينته بالتدريج من مشارف شارع الجلاء ورمسيس حتى أطراف ميدان التحرير وباب اللوق من ناحية، ومن شارع الجمهورية إلى العتبة من ناحية أخرى، حتى الموسكي وما وراءه تجاه الغورية وشارع الأزهر.. إلخ ففي هذه الدائرة تتقاطر تجارة التجزئة والجملة السلعية والمالية، الحديثة العصرية والقديمة الوطنية. هنا كل مراكز المؤسسات والشركات تامهمة والجمعيات التعاونية والتأمين والبنوك الرئيسية والصيارف والمحال التجارية تمثل الجهاز العصبي المركزي للوظيفة التجارية لسكان العاصمة وإقليم العاصمة جميعاً.

من أخص خصائص هذه المنطقة أن تجارة الجملة، الأقل اتصالا بالجمهور المباشر والتي تحتاج إلى مساحات أوسع، تنزوي نوعا إلى أطرافها الهامشية تاركة عين المنطقة لتجارة التجزئة وتكتفي هي بأن تقف خلفها لتغذيها وتخدمها. أما التجزئة فتعيش على الموقع الإستراتيجي البارز والدعاية المكثفة وتتعامل مع الجمهور مباشرة وقد يكفيها موطئ قدم صغير ولكنه حساس وباهظ الثمن أو الإيجار. فشارع الجلاء ورمسيس تجاه محطة مصر وتجاه التحرير في منطقة معروف تسودهما مخازن الجملة خاصة من قطع غيار السيارات والإطارات والأدوات الكهربية. وفي أركان ميدان الفلكي تتركز تجارة إطارات السيارات. وفي مداخل شارع القلعة كما في الفجالة تتركز تجارة الورق والوراقين وأدوات الكتابة. وشارع الجمهورية تجاه المحطة تكثر فيه محلات التحف القديمة والإنتيكات.. إلخ. وكل هذه الشوارع قل أن يرتادها الجمهور اليومي العريض، وهي أكثر هدوءا نسبيا من شوارع مثل ٢٦ يوليو وطلعت حرب

وعدلي وقصر النيل وما يجاورها ويتفرع عنها حيث لا نجد إلا تجارة التجزئة الكثيفة المضطرمة بالحياة والحركة. وبينما يظهر التخصص في خط واحد حسب الشوارع أو المناطق في حالة تجارة الجملة، يغلب على تجارة التجزئة الطابع المختلط عموما، والذي يصل إلى مداه في المحلات الكبرى المنوعة stores multiple مثل شيكوريل وهانو وجاتينيو..إلخ، وتلتصق وثيقا بعين المنطقة نصا.

من أهم الخصائص بعد هذا، الفصل الجغرافي بين محلات التجارة العصرية والقديمة التي تختلف أيضا في روادها، فالأولى أكثر ارتباطا بجمهور العاصمة نفسها أولا وبطبقاته الأكثر غنى ثانيا، بينما يكثر في زبائن الأخيرة أبناء إقليم المدينة من الريف المجاور أو البعيد إلى جانب الطبقات القاهرية الشعبية. فالقطاع الغربي من منطقتنا تستأثر به التجارة العصرية، بينما تتراجع القديمة إلى القطاع الشرقي ابتداء من العتبة تقريبا. فهناك تسود المحلات الشعبية والتقليدية ويتحول السوق إلى "سويقات" وقد يخرج من المحل إلى الرصيف إلى المتجول. كذلك يكثر التخصص بالشوارع ويزداد دور الجملة، كما نرى في المحلات المصنوعات الجلدية والأحذية والصيني على نواصي العتبة، وكتجارة الذهب والصياغة في الموسكي والصاغة، والأقمشة الخشنة وغزل الأنوال الريفية في شارع الأزهر، والعطارة في الغورية..إلخ.

تلك هي تجارة القاهرة المركزية، التي يتعدى إشعاعها حدود العاصمة، ولكنها مع ذلك لاتحتكر كل نشاطها. فهناك التجارة الثانوية أو المراكز الثانوية أو تجارة الأحياء التي تظهر في مفارق الطرق الإستراتيجية في أغلب الأحياء كنسخ مصغرة محلية-كأنها الأقمار في فلك الشمس-من منطقة التجارة المركزية، التي تخرج منها كالأشعة في الواقع ألسنة ممتدة على طول الشوارع الرئيسية في المدينة تحتل المحلات التجارية جوانبها وواجهتها، حتى إذا تجمعت في مفارق الطرق بعيدا عن قلب المدينة برزت من تلاحمهما وتكاثفهما تلك المراكز الثانوية التي تخدم الأحياء. ومع ذلك تبقى الدرجة الثالثة من التجارة، وهي آلاف المحلات الصغيرة المبعثرة في كل شوارع أو زوايا ونواصي الجيزة والأحياء السكنية، والتي يتحدد توزيعها عادة حسب كثافة السكان، مثلما يتحدد مستواها حسب الحالة الطبقية. وعادة ما تمثل هذه مشكلة في مناطق الهوامش والأطراف من المدينة حديثة النمو كالعجوزة الآن، فظهورها يتخلف عن ظهور السكن الجديد أو لا يظهر منها أولا إلا محلات الضروريات كالبقالة

والتموين، وتظل المنطقة خاما تعاني من نقص الخدمة التجارية حتى تزداد كثافة السكان وتتداعى سائر الخدمات التجارية الأكثر رقيا وترفيها.

* * *

من الوظيفة التجارية ننتقل منطقيا إلى الإدارية. كعاصمة سياسية، لها شهرة تقليدية بمركزية بيروقراطية ثقيلة، وتلعب الإدارة دورا مهما في حياة القاهرة. ويكفي أن أكثر من ثلث هيئة موظفي الدولة يتركز فيها. والوظيفة الإدارية تتداعى مؤسساتها بالطبع، وتميل إلى التجمع الجغرافي، كما أنها تحتاج إلى موقع مركزي دون أن يكون بالضرورة في صميم القلب المزدحم الصاخب.

من هنا، وعلى ضلوع منطقة التجارة المركزية ناحية الجنوب والجنوب الغربي، تمتد رقعة دولة الإدارة وتتتابع أجهزتها كأنها قشلاقات جيش موظفين. فابتداء من ميدان التحرير، الذي يقف مجمعه الشاهق ليعلن كنصب تذكاري عن حدود تلك الدولة، وفيما بين شارع القصر العيني وخط حديد حلوان، يمتد لنحو الميل حتى الوزارات والبرلمان بلا انقطاع، ككتلة بالجملة أو كحجر واحد، بل وتطفو خارجها طفوح النمو والربح المركب، حتى تصل عبر ميدان لاظوغلي إلى ميدان الجمهورية حيث كانت قاعدة الحكم طويلا.

ويلاحظ أنه يرتبط بهذه الكتلة ارتباطا صميما ومباشرا، وظيفيا وجغرافيا، شريحة مميزة بكاملها على الجانب الآخر من شارع القصر العيني من السفارات والقنصليات، تتمثل في قصر الدوبارة وجار دن سيتي التي تتصل بها مباني الخارجية والجامعة العربية المترابطة أيضا. هنا دولة السلك السياسي الأجنبي الذي يحتاج إلى أن يتعامل مباشرة وفورا مع دولة الموظفين المجاورة. وقديما، وفي العصر الاستعماري، فلعل الكلمة الدارجة " مابين لاظوغلي وقصر الدوبارة " كانت تعبر عن علاقة أكثر من عابرة. على أن هذه الشريحة إنما ترتبط بالوظيفة الإدارية السياسية ارتباط جزئيا، ولكنها أساسا منطقة سكنية وليست من القلب الإداري.

* * *

العاصمة بعد هذا هي عاصمة الصناعة المصرية أيضاً، ففيها أكبر حشد للصناعة في البلد. وإذا كانت الصناعة الحديثة طفرة جديدة نسبيا في وظائف القاهرة، فهي منذ القدم مركز تليد للصناعة القديمة والمحلية التي تراجعت الآن كثيرا جدا في أهميتها لتترك الصدارة المطلقة للأولى. وهذه التفرقة هي نفسها مفتاحنا

للتمييز وظيفيا وجغرافيا بين الصناعة الخفيفة والثقيلة، بين الصناعات البسيطة واليدوية والصغيرة والتقليدية وبين الصناعات الحديثة والمعقدة والآلية. فالصناعة الثقيلة ليس لها مكان إلا على أطراف المدينة، أما الخفيفة بكل أنواعها فتقوم في داخلها ولكن بعيدا عن قلبها التجاري.

على أننا هنا نستعمل الثقيلة والخفيفة استعمالا نسبيا خاصا فيه قدر من تجاوز. فلعل من الخير ومن المقبول لأغراضنا وفي إطار المدينة المحلى الضيق أن نطلق الأولى على الصناعات الأكثر أهمية وحجما أو وزنا في اقتصاد أو لاندسكيب المدينة، والثانية على الأقل خطرا ومقياسا أو ثقلا. وهذا مع العلم بأنه لا صناعة ثقيلة بالمعنى الصحيح في القاهرة إلا صناعة الحديد والصلب في حلوان.

فمن الخفيفة نجد خلية قديمة من الورش والمصانع الصغيرة والمعامل التقليدية في بولاق والسبتية، ترتبط غالبا بالحدادة والسمكرة وتصليح وتجميع الآلات والمراكب ووابورات السكة الحديدية، وتعتمد أحيانا على الخردة التي لها سوق تقليدية فيها (وكالة البلح)، كما تعمل في الصباغة والنسيج على نطاق صغير لعله امتداد أو بقايا لنشاط واسع عرفته المنطقة في القرن الماضي أيام محمد علي حين استمدت "المبيضة" اسمها من صناعة تبيض الأقمشة.

وعلى الجانب الآخر الشرقي من المدينة خلف الموسكي والغورية وباب الخلق حتى السيدة زينب، في الجمالية والدرب الأحمر، منطقة أخرى واسعة تنتشر فيها ورش الحرفيين والصناعات الصغيرة المتنوعة التقليدية والحديثة التي تتراوح بين معامل الغزل المتوسطة وصناعات الأغذية وتعليب الفواكه وفابريقات تعبئة المياه الغازية والزجاج والنجارة والمصنوعات الجلدية والحياكة والتطريز والطباعة والتجليد وسائر الصناعات الاستهلاكية. ومن هذه الوحدات ما يقوم في بنايات أنشئت خصيصا للصناعة، أو في شقق أو بدرومات المساكن العادية، وبعضها لا يخضع للمواصفات والمقاييس الدقيقة للصناعة، وبعضها نصف آلي نصف يدوي، ومنها ما ينتج لحساب الجملة وما ينتج للزبائن الأفراد من الجمهور..

ومعنى هذا أن هذه الصناعات الخفيفة، التي لا تحتاج إلى رؤوس أموال أو أعمال أو خامات ضخمة أو مساحات شاسعة، ويمكن لمضايقاتها من ضوضاء ونفايات أو روائح أن تحتمل نسبيا، هي وظيفة تختلط بالوظيفة السكنية وليست منعزلة عنها. ولكنها من الناحية الأخرى لا يمكن أن تقوم -وما قامت هنا- إلا في

تضاعيف أحياء سكنية فقيرة وشعبية، ووجودها نفسه بين ظهرانيها واحد من عوامل خفض درجتها السكنية، غير أنها في النهاية من أهم مصادر الدخل والعمل للسكان، فمن بين صفوفهم تستمد كل قوتها العاملة.

وأخيرا فإن تركز هذه الصناعات المتنوعة هنا بكثافة ملموسة هو في الحقيقة استمرار لتوطن صناعي تقليدي قديم هنا. ففي هذه القطاعات العتيقة من شرق المدينة كان القلب الصناعي للقاهرة الوسيطة، بتنظيماتها ونقاباتها وأسطواتها. وصناعاتها اليوم تستمد بعضا من مسحة وخصائص صناعات الأمس، إما متطورة أو متدهورة نوعا، وإن كانت لاتبدي التخصص الجغرافي الذي كان يسود قديما حين كانت كل صناعة -على طريقة العصور الوسطى- ترتبط بشوارع أو حارات معينة مازالت مقروءة حتى اليوم في الأسماء وإن زالت من اللاندسكيب. من هذه الأسماء -التي لم تعد اسما على مسمى بالضرورة- السروجية والسيوفية وسوق السلاح حول القلعة، ثم المغربلين والكحكيين والفحامين والنحاسين.. إلخ.

فإذا انتقلنا الآن إلى الصناعة الثقيلة (تجاوزا أو نسبيا)، التي هي أحدث جدا من الناحية التاريخية، فإنما ننتقل من وسط جسم المدينة إلى أقاصي أطرافها والهوامش. فالصناعة الثقيلة وظيفة هامشية جدا بالضرورة، تقذف بها عوامل الطرد المركزية إلى حواف المجمع، بل على انفصال فيزيقي عنه إن أمكن، بينما لا تجد هي نفسها أي فائدة أو منطق في السعي إلى داخله.

وإذا كانت هذه الصناعات الحديثة تاريخيا وعصرية تكنولوجيا، فثمة قبلها بعض خطوط قديمة بدائية ومحلية بالضرورة تبدي على قلة أهميتها تركزات جغرافية صارمة بل وترتبط حتى بمعطيات الموضع نفسه وتنعزل بصرامة عن جسم المدينة. ولعل المثل الكلاسيكي هو صناعة التحجير والجير والطوب. فمحاجر القاهرة وجياراتها مركزة كلها بالضرورة في الجنوب الشرقي في جبل المقطم أساسا، حيث تتتابع عشرات وعشرات منها في نطاق واضح، ينحصر بين كنتورى ١٠٠-٨٠ مترا في الشرق، ٦٥-٣٥ مترا في الغرب، ويمتد من مشارف الجبل الأحمر حتى نهاية الخليفة، كما يتناثر عدد منها في تلول عين الصيرة وبطن البقرة غير بعيد عن مصر القديمة التي تعرف نشاطا مهماً في صناعة وتجارة الجير والجبس. وليس من المصادفة أن كثيرا من مباني شرق القاهرة هي من الحجر أكثر منها من الطوب. وعلى النقيض تماما من المحاجر التي ترتبط بالجبل، ترتبط القمائن وصناعة الطوب بالجزر النيلية وطميها. فجزيرة الذهب غابة من المضارب، وهي المورد الأول للعاصمة.

ومادمنا هنا في دائرة المحاجر، فقد يمكن أن نمضي منطقيا إلى الجنوب، إلى طره والمعصرة، لنجد استمرارا وظيفيا، ولكن مع انقطاع جغرافي جزئي وتكنولوجي تام، للصناعة المرتبطة بالمحاجر. فمنذ أوائل القرن قامت هنا وحدات عصرية وعلى أضخم نطاق لصناعة الأسمنت والجير، طفرت في العقود والسنين الأخيرة لتصبح أعظم صرح في هذا الخط لا على مستوى الجمهورية وإنما على مستوى القارة، يغطي إنتاجه الاستهلاك القومي ويجد فائضا مهماً للتصدير. والوحدتان اللتان تستوعبان بضعة آلاف من الأيدي العاملة واللتان تعدان بمقياسهما وطبيعة منتجاتهما من أثقل الصناعات، هما في الحقيقة مستعمرتان ضخمتان من التخصص المطلق بالضرورة الحتمية، منفصلتان جغرافيا عن جسم العاصمة تماما، ولكنهما تدخلان في صميم وشقوق كل نسيج فيه.

غير أننا في الحقيقة إذا قلنا الصناعة الثقيلة فقد قلنا شبرا في الشمال، وحلوان في الجنوب. هاتان قطبا الصناعة الثقيلة، وأعظم منطقتين صناعيتين منفردتين في مصر عموما، وتبلغ قيمة رأس المال الذي وضع في صرح كل منهما الآن بضعة مئات من الملايين من الجنيهات.

والقطب الشمالي أقدمها، بدأ بمضاربات الرأسمالية والبورجوازية الأجنبية والمتمصرة والمصرية إبان الحرب الثانية للكسب الاستغلالي السريع والصريح في صناعات الغزل والنسيج والتريكو والجوارب خاصة والقطنية أساسا، في مصانع متهالكة وفي خطة عشوائية وفي ظروف عمالية سيئة. ولكن النواة التي بدأت منفصلة جغرافيا في شبرا الخيمة نمت قبل التأميم ثم طفرت بعده حتى توسعت زحفا: إلى الشمال حتى تخطت حدود القليوبية وضواحي مصر، وإلى الجنوب عبر شبرا المظلات وشبرا البلد حتى شارفت حدائق شبرا والتحمت بالسكن وتداخلت فيه. كما انتقلت بعد ذلك من القطنيات إلى الصوفيات والحريريات والبلاستيك والنايلون، كما نمت لنفسها صناعات تكميلية مساعدة من المعدنيات والإطارات..إلخ، لتؤلف منطقة صناعية منوعة ومتكاملة أفقيا ورأسيا بمعنى الكلمة.

وبقوة هذا القطب الصناعي، انبثقت أخيرا نويات صناعية أحدث على طول الترعة الإسماعيلية وشارع بورسعيد، زحفت حتى مسطرد، وترتبط بصناعات تعبئة الغاز والكاوتشوك..إلخ.. ومن قبل قفزت حول ذلك القطب مستعمرات عمالية غير مخططة ومدن العشش والصفيح مازالت دون المستوى كثيرا وتمثل خلية من التزاحم الخطير، تجمع في محيطها بضع مئات من الآلاف من العمال وأسرهم.

هذا، وقد ظهرت لهذه المنطقة الصناعية الأم نوية حديثة متواضعة وزنا وحجما ولكنها تناظرها عبر النهر في شمال الضفة الغربية في إمبابة، تدور أساسا حول النسيج والصناعات القطنية والتريكو والجوارب، تخلقت حولها هي الأخرى مستعمرة عمالية -مدينة العمال بإمبابة- إلا أنها مخططة هندسيا على نمط مستطيل. وقد تقاطرت بجوارها أخيرا محطات القوى والمياه... إلخ.

والآن، ومن وجهة جغرافية المدينة، فلا شك أن منطق توقيع هذه المناطق الصناعية الغلابة يدعو إلى التساؤل. لسببين أساسيين:

أولهما: أنها تقوم في صميم الأرض الزراعية الثمينة، فهي وإن نقلت بالتحول المهني عشرات الآلاف من الفلاحين إلى عمال فقد عقمت الآلاف من أجود الأراضي، كما أصبحت نفايتها مصدر تلوث خطير لمياه المصارف والترع.

والسبب الثاني: أن هذا الموقع الشمالي يأتي على النقيض تماما من كل منطق التخطيط في بلد تسود الرياح الشمالية وتطلب لذاتها كتيار منعش شتاء ملطف صيفا (البحري). فهي تلقي بكل دخانها وإفرازاتها على سماء المدينة إلى الجنوب. ولعل هذا وحده يفسر كيف خفضت القيمة السكنية لتخومها المباشرة ولماذا سادت السكنى المتوسطة والفقيرة وأحياء العمال في القطاع الشمالي من المدينة هنا في شبرا وروض الفرج، والساحل في وقت كان يمكن فيه أن يستقطب السكن الراقي باجتماع الواجهة الشمالية مع الجبهة المائية على النيل.

غير أنه ما من شك أن الذي يفسر هذا التوقيع الخاطئ سكنيا هو الميزة الموقعة اقتصاديا، فهنا في الشمال تتصل العاصمة مباشرة أسهل وأسرع اتصال مع كتلة الدلتا الغنية مصدر خامها وغذائها الأول وممر التصدير والاستيراد الخارجي. لقد تغلبت مصالح الإنتاج على السكن، ومصالح صاحب رأس المال (قبل التأميم) على صاحب العقار.

وإذ ننتقل إلى حلوان -القطب الجنوبي- نجد المسرح مختلفا والقصة أحدث بكثير. فهنا ومنذ عقد تقريبا غزت الصناعة الثقيلة ضاحية خارجية منفصلة، سكنية سياحية، ترقد هادئة حول عيونها المعدنية كمدينة من مدن المياه spa town، لترتفع الأفران العالية إلى جانب ينابيعها المعدنية. هذه أول قلعة لصناعة الحديد والصلب، قاعدة الصناعات جميعا، بدأت على خام أسوان والنقل النهري وتتحول إلى خام الواحات البحرية والخط الحديدي. ففي أحضان وادي حوف زرعت غابة من المصانع

والمداخن والأفران تترامى لبضعة أميال وتعمل على خط إنتاج واحد كسير متحرك، لتنتج القضبان والعربات الحديدية والفلنكات والآلات المعدنية وقطع الغيار وأسياخ التسليح، عدا صناعة السيارات تصنيعا وتجميعا، وعدا الصناعات الحربية والأدوات المنزلية الحديثة... إلخ.

والعملية هنا انقلاب عمراني كامل بقدر ما هي انقلاب اقتصادي. فأمام حلوان الآن نمو سكاني ومدني ضخم، ومن المحتمل أن تنمو حتى تتقابل أو تتقارب يوما مع حدود كتلة القاهرة المبنية مثلما دخلت الآن أكثر من أي وقت مضى في فلكها الاقتصادي، وإذا كان التوقيع الصناعي هنا سليما من وجهة مناخ القاهرة، فإن مستقبل مدينة الاستشفاء والعيون يصعب التنبؤ به في قلب هذه الدوامة الصناعية الثقيلة. ولكن المحقق على أية حال أن ليس ثمة مسوغ جغرافي طاغ أو واضح لذلك التوقيع أصلا، إلا أن يكون القرب من مجمع العاصمة، الأمر الذي يعود بنا إلى قضية إفراط المترو بوليتانية عموما. من وظائف الإنتاج ندلف إلى وظائف الخدمات، وأولها التعليم. وللوظيفة التعليمية في القاهرة دور خاص إن لم يكن فريدا حقا، إذ إن جمهورها من الطلبة يقدر بنحو المليون أي خمس السكان، ولا مفر لذلك من أن تبرز مؤسساتها بإلحاح في لاندسكيب المدينة. والقاعدة الأصولية أن هذه توزيعها الجغرافي يتناسب مع درجتها التعليمية، بحيث تكاد شبكتها ترسم هيكلا عنقوديا أو شجريا أو هرميا كنظام كريستالر عن توزيع المدن نفسها في الإقليم. فمدارس الصغار -وهي أساسا خدمات جيرة- أشدها انتشارا وانتشارا، وتوزيعها سكني بحت أي يرتبط بالأحياء السكنية. أما المدارس الثانوية فخدمات أحياء أكثر منها خدمات جيرة ضيقة، وهي لذلك أقل عددا وأكثر تباعدا، ولكنها سكنية أيضا بالضرورة..

وإذا كان ثمة استثناء للقاعدة فهو الاستثناء الذي يؤكدها، وهو التعليم الأجنبي. فمدارس الجاليات والإرساليات الأجنبية كلها تتقاطر (أو كانت) على قلب العاصمة التجاري، فهي -كروادها- أدنى إلى المسحة التجارية وأشبه أن تكون عناصر مقتلعة، مثال ذلك المدرسة اليونانية والألمانية والفرنسية قرب الفلكي (وربما أضفنا تجاوزا الجامعة الأمريكية غير بعيد) ومدرسة الإرسالية الأمريكية قرب حديقة الأزبكية، إلخ. أما التعليم العالي فهو وحده الذي يبدي تركزا جغرافيا حاسما أولا، وانفصالا مطلقا عن السكن ثانيا، وارتباطا حتميا بأطراف المدينة ثالثا، وبأطرافها الحديثة الراقية العصرية رابعا. ذلك أن الجامعة تحتاج إلى مساحات شاسعة -تتزايد

أبدا- مثلما تحتاج إلى الهدوء المطلق. وهذا يتجسم في ترامي جامعة القاهرة في الجيزة الحديثة على مدى ما بين كوبري الجامعة وكوبري الجيزة وبعمق كبير، ثم في انتشار جامعة عين شمس من الزعفران إلى العباسية. وكل منهما -يلاحظ- على ضلوع العاصمة غربا وشرقا، كأنهما قطبان إلا أنهما قطبان متنافران موقعا مع قطبي الصناعة في الشمال والجنوب.

وتمثل جامعة الأزهر توقيعا مختلفا، فصحيح أنها على ضلوع المدينة بل وفي حضن الجبل من الشرق توا، ولكنها في أقدم قطاع في المدينة. ولكن هذا مفهوم لعراقتها التاريخية إلى جانب نوعيتها الدينية. غير أنها تدفع ثمن هذه النشأة وذلك الموقع عجزا عن التوسع المساحي في وسط ذلك الحي الشعبي المكتظ، الذي يضفي عليها أيضا جو وطابعا خاصا. ولهذا فقد بدأت أخيرا تتوسع بمعاهدها ومدنها السكنية تجاه العباسية بعيدا في مدينة نصر.

ومن الطريف هنا أن نلاحظ الاتجاه التاريخي في الحركة من الجامعات الدينية القديمة إلى الجامعات العلمانية الحديثة. فالانتقال الحضاري الذي حدث خلال القرن الأخير من التعليم الديني التقليدي إلى التعليم المدني العصري يلخصه ويرمز إليه الانتقال من جامعة الأزهر إلى جامعة القاهرة، من أقصى شرق المدينة المرتفعة العتيقة الفقيرة إلى أقصى غربها السهلي المحدث الغني. وأطرف منه أن نلاحظ مرحلة انتقال بينهما، تتوسط المدينة عبر هذا القوس جغرافيا واجتماعيا كما تتوسطه تعليما، وتتمثل في مجموعة دار العلوم ومعهد التربية العالي والمعاهد المجاورة والمماثلة في منطقة المنيرة" وذلك قبل ضمها أخيرا إلى الجامعات الحديثة، حركة بندول كاملة نحو التغريب حضارة ونحو الغرب موقعا! هذا، ويختلف التعليم الفني في توقيعه، فهو عادة -وبأنواعه المختلفة- يرتبط بمواقع المهنة نفسها أو الأحياء المعنية. فعادة تقوم المدارس والمعاهد الصناعية قرب الأحياء الصناعية، مثلما يتبلور في سلسلة متراصة من المدارس الفنية الصناعية وورشها في بولاق ترسانة الصناعة التقليدية قديما (مدارس الصناعات الزخرفية والميكانيكية سابقا، وورشة القطن..إلخ). ويمكن في معنى خاص أن نمد هذه القاعدة إلى بعض مؤسسات التعليم الجامعي الطبي بحسبان المستشفيات الجامعية تعليما وممارسة معا. فمن أدعى الظاهرات لفتا للنظر تلك الكوكبة العديدة والمتلاصقة من المستشفيات الجامعية لكلية الطب ومعامل الأبحاث، التي تتركز في شمال الروضة وعلى طول القصر العيني من كوبري المنيل إلى فم

الخليج، والتي تحدد قدرها فيما يبدو منذ بدأ القصر العيني أيام كلوت. فهذه الدائرة الملمومة لا يمكن إلا أن ترتبط في الذهن على الفور، كما هي في الواقع، بأكبر تجمع في الجمهورية للأطباء وللعيادات الطبية في دائرة باب اللوق وما حولها، وليس يفصل بينهما إلا شارع القصر العيني نفسه.

* * *

ثم ننتقل إلى وظيفة تعد -عكس التعليمية- مناقضة ومضادة للسكنية إلى حد كبير، وهي الصحية. فالمستشفيات بمساحاتها الكبيرة وحاجتها إلى الهدوء وبأخطار العدوى، لا مكان لها وسط كتلة السكان عموما وإذا كان بوسط القاهرة عدد من المستشفيات المركزية، فالمواقع السائدة والمفضل غالبا والمحتم أحيانا هو الأطراف، وربما الأطراف المنعزلة تماما، وقد نضيف: في منصرف الرياح كما في العجوزة ومستشفاها العام الكبير، وكما في العباسية حيث مستعمرة كاملة من المستشفيات العقلية والحميات والصدرية فضلا عن كورنتينة ببطرية ومعمل السيرم (قارن على العكس مستشفى الحميات في شمال إمبابة).

وترتبط المدافن، من زاوية معينة، بالوظيفة الصحية، فتصدق شروطها على توقيعها بصورة أشد صرامة. وجنوب شرق القاهرة في منصرف الرياح، عاليا على التل المكشوف، بعيدا عن الطين في الرمل الجاف، منفصلا عن جسم المدينة، هو مدينة الأموات. والواقع أن سلسلة الجبانات، من الغفير شمالا حتى الإمام الشافعي جنوبا، تؤلف نطاقا متصلا تقريبا ينحصر بين نطاق المحاجر والجيارات شرقا وبين سلسلة التلول المتقدمة غربا" قطع المرأة، زينهم، عين الصيرة، "التي بدورها تشكل نطاقا متقطعا يعزلها ويعزله عن السكن.

ومع ذلك ففي الإمام الشافعي أخذ الحي يزحف على الميت ويكاد يطارده، وتداخلت مدينة الأحياء مع مدينة الموتى بصورة قابضة للنفوس. وإذا كانت مدينة المقابر المقسمة بالشوارع الخطية التي تحمل أسماء وأرقاما، تبدو كأنها المدينة السكنية للموتى، فالطريف أن العزل فيها على الأساس الديني والجنسي أكثر صرامة بكل تأكيد عنه في مدينة الأحياء، فلكل طائفة جباناتها الخاصة المطلقة.

تبقى أخيراً بعض وظائف تتشابه مع الصحية في طبيعتها الهامشية، إلا أنها لا تبدو كذلك دائما في القاهرة. فالمؤسسات الترفيهية -الرياضية منها- كالملاعب والأندية الكبرى هي بطبيعتها مسرفة في حاجاتها من المساحة وتختنق بغير الهواء

الطلق والأماكن المكشوفة. ولأن جمهورها - في ظل المستوى الحضاري والاجتماعي الراهن- مازال محصورا غالبا في الطبقات القادرة، فهي تجنح عادة إلى أن تقع في القطاعات الراقية من الأطراف. اعتبر مثلا نادي الصيد خلف الدقي، والزمالك والترسانة في مداخل العجوزة، وإستاد القاهرة في مدينة نصر، ثم نادي سباق الخيل والبولو في مصر الجديدة..إلخ.

ولقد نظن أن هذا يصدق أيضا على ناديي الجزيرة والأهلي اللذين يحتلان نصف الجزيرة الجنوبي ويمثلان معا أكبر رقعة رياضية متصلة في العاصمة. ولكن الحقيقة أن هذا الموقع أقرب شيء إلى قلب المدينة، وموقعه هنا إنما يمثل حالة شاذة من عدم التلاؤم ومن الجمود anachronism من وجهة ديناميات نمو المدن. وهذا نقد قد يثير حساسيات عاطفية عند الكثيرين، ولكنه يفهم على ضوء الماضي. فقد أنشأ الاستعمار البريطاني هذه الحلبة لتكون حكرا أرستقراطيا له أولا، وحين أنشأها في العقود الأولى من القرن لم تكن الضفة الغربية تتعدى بالكاد بندر الجيزة، وكان هذا الموقع بالفعل أطراف مدينة القاهرة الهاشمية. ولكن نمو القاهرة عامة والضفة الغربية خاصة سرعان ما غمره في مده واحتواه حتى أصبح الآن قريبا جدا من قلب المدينة. وهناك أدلة متزايدة على أنه قد بدا بالفعل يعرقل النمو الطبيعي لهذا القلب، كما أن تدفق رواده عامل اضطراب موسمي خطير في مواصلات العاصمة. والأسوأ من هذا أنه يعقم الاستغلال الأمثل لرقعة هائلة ذات قيمة عقارية لا تقدر في موقع ممتاز من المدينة المتفجرة بالنمو. فكل أصابع التخطيط الرشيد تشير إليه إما كمنطقة سكن راقٍ أو كسكن تجاري عالمي (فنادق سياحية إلخ) أو كخلية ومجمع للقاعات الدولية وصالات المؤتمرات والمعارض العالمية إلخ. والمنطق التخطيطي يقضي بأن يهاجر إلى الهوامش الجديدة، مثلا كمنطقة نادي الصيد. أما القول بإن هذا يحرم القاهرة من "رئة" طبيعية أو يضاعف مشكلة كثافة السكان، فليس ردا، لأن النيل بشعبيته هنا هو الرئة الطبيعية الكاملة، والحاجة إلى رئة إنما تزداد كلما بعدنا عن النهر لاسيما في أعماق الضفة الشرقية المكتظة. ثم إن الزمالك والروضة مناطق مبنية ولم تخنق أحدا. وفوق هذا كله، فما نعرف عاصمة كبرى في العالم تتوسطها جزر نهرية دون أن تستغلها أكثف وأمثل استغلال عمراني: مثلا السيتي في باريس، مانهاتن في نيويورك.

* * *

مثل هذا أو شيء منه يمكن أن يقال عن الوظيفة الحربية ومؤسساتها في القاهرة، فمنذ العصور الوسطى وطوال تاريخ القلعة مثلا، وللدفاع مدينته الكاملة المطلقة (بثكناتها ومخازنها بل ومصانع سلاحها) التي تقع كلية خارج المدينة وعلى ضلوعها الشرقية، مصدر الخطر الخارجي الأساسي. (على العكس من هذا تماما في ظل الاستعمار، كانت هذه المدينة العسكرية في صميم قلب المدينة، قصر النيل، استجابة لا لأغراض الدفاع الخارجي ولكن لأغراض الاحتلال الداخلي) وانتقال موقع وظيفة الدفاع من جنوب شرق القاهرة (القلعة) إلى شمالها الشرقي (العباسية- القبة) يرمز إلى تطور الفن العسكري.

ولا شك أن الموقع الأخير، الحالي، هو عنق زجاجة القاهرة ومدخلها الإستراتيجي الأخطر. غير أن القصة هنا تكرر مشكلة تراجع المواقع الهامشية مع نمو المدينة فقد احتوى المد العمراني المدينة العسكرية -على ترامي رقعتها- إلى أن فقدت هامشيتها الشرطية بتجاوز العمران السكني والمدني لها شرقا نحو الصحراء. وإذا كان هذا عنصر تعويق في نمو المدينة، فهو أشد تعويقا للوظيفة الحربية نفسها. ولقد نضجت المشكلة -التي واجهتها عواصم أخرى كثيرة- بما يسمح بإعادة توقيعها ونقلها إلى الأطراف الجديدة.

الطبوغرافيا الاجتماعية

لا تنفصم الوظيفة السكنية عن فكرة الطبوغرافيا الاجتماعية، إن لم ترادفها تقريبا. والطبوغرافيا الاجتماعية -والمصطلح للمخطط المهندس الفرنسي جاستون بارديه- هي أساسا التوزيع الجغرافي للطبقات الاجتماعية على أرضية المدينة. وإذا كانت المدينة الاشتراكية كالسوفيتية لا تعرف إلا التباين الجغرافي على أساس الإنتاج، بينما تتجانس فيها الأحياء السكنية تماما، فإن طبوغرافيتنا الاجتماعية ليست بعد اشتراكية وإن كانت لمدينة عاصمة في دولة تتحول إلى الاشتراكية. فنحن هنا إزاء المحصلة التراكمية لتاريخ طويل من الإقطاع والرأسمالية، ولا مفر لنا لوقت طويل من أن نميز بين الأحياء السكنية على الأساس الطبقي اقتصاديا واجتماعيا. بل إن المسكن مازال هو التعبير المادي الأخير عن الطبقة والمنزل هو المنزلة، والمكان هو المكانة.

غير أن الطبوغرافيا الاجتماعية ليست الطبقة وحدها، بل والجنسية والطائفة

أيضا، أي الأقليات عموما، وهذه لها مكانها في عاصمة كوزموبوليتانية كالقاهرة، وسنجد لها جزرها وأسافينها الجغرافية الخاصة. على أن من الواضح تماما أن وزن الجنسية والطائفة ثانوي وضئيل للغاية بالقياس إلى الطبقة. فهذه وحدها هي أهم المتغيرات وأبرز المعالم في الطبوغرافيا الاجتماعية لعاصمة قديمة عريقة لشعب موحد متجانس منذ آلاف السنين. وهذا على العكس تماما من مدينة كالمدينة الأمريكية تمتاز أساسا، كمدينة بلا تاريخ وكمدينة هجرة، بالتنافر الإثنولوجي وتعدد الأجناس والقوميات، ويأخذ فيها الجنس بعد لا يقل خطرا عن الطبقة في تشكيل مورفولوجيتها الاجتماعية.

مع هامش عريض من التبسيط والتعميم، يمكن أن نحصر الأحياء السكنية الفقيرة في أقصى جنوب المدينة وأقصى شرقها ثم أقصى شمالها، مع جزيرة كبيرة في وسطها. أقصى الجنوب: في أجزاء من الجيزة البندر، وأجزاء من مصر القديمة حتى السيدة زينب، مرورا بأبو السعود والمدابغ والمذبح والبغالة. أقصى الشرق: من الخليفة حتى الحسينية، مرورا بالقلعة والدرب الأحمر والجمالية. أقصى الشمال: في أطراف شبرا الخيمة وشبرا البلد والساحل وما حولها وامتداداتها عبر مسطرد ومهمشة والشماشرجي، ثم إزاءها في إمبابة. أما جزيرة الوسط فكتلة بولاق والسبتية. وثمة أحيانا جيوب ثانوية على أطراف المنطقة المبنية في الضفة الغربية من القرى المبتلعة كبولاق الدكرور أو مدن العمال مثل بين السرايات.

هذه بوضوح هي إما أحياء شعبية قديمة التاريخ، والمباني العتيقة الطرز، بعضها متهالك أو آيل للسقوط، شوارعها بلا تخطيط أو عشوائية الخطة، ترتفع فيها كثافة المساكن بفضل أزقتها وحواريها الضيقة؛ كما ترتفع فيها كثافة السكان وحجم الأسرة. أو هي أحياء عمالية حديثة التاريخ ولكنها منخفضة المستوى وقد ترتبط ببعض البورجوازية الصغيرة من صغار الموظفين أو الحرفيين. وأوضح من ذلك كله أن السكن يختلط فيها بدرجة أو بأخرى بالصناعة والتجارة كما رأينا. وهي أخيرا وفي أغلبها، ولكن ليس دائما تقوم على الأرض المرتفعة ذات الكنتورات العالية.

وعلى طرف النقيض، تتوزع الأحياء السكنية الغنية، بدرجاتها المتفاوتة، في معظم النطاق الأقرب إلى النهر من الضفة الغربية شمال الجيزة البندر، ثم في الجزء الأكبر من جزيرة الروضة، ثم في الجزيرة (الزمالك) ثم نعبر إلى جاردن سيتي وقصر

الدوبارة، لنقفز بعدها بعيدا إلى مصر الجديدة وأجزاء كثيرة من الشمال الشرقي ابتداء من القبة. وأبرز ما يجمع بين هذه الأحياء جغرافيا أنها باستثناء مصر الجديدة وما حولها تقع في الأراضي المنخفضة على جبهة النيل.

وفي الأعم الأغلب تقتصر هذه الأحياء على السكن، فإن غزتها وظائف أخرى فبعض المؤسسات الإدارية كالوزارات أو المصالح، ولكن بوجه أخص البعثات الدبلوماسية، فهذه تتقاطر على أحياء السكن الراقي، فنجد أغلب السفارات والمفوضيات والقنصليات تعشش في جاردن سيتي وقصر الدوبارة فالزمالك فالدقي وحديثا وأخيرا العجوزة. على أن السفارات والهيئات الدبلوماسية إذا عدت دليلا على السكن الراقي، فهذا يقتصر على الأحياء السكنية القريبة من قلب البلد نسبيا، أما المتطوحة منها فتخلو منها، كمصر الجديدة.

أما اللاندسكيب المدني السائد هنا فهو العمارات العالية وأحيانا الناطحات الصغيرة، ودائما في عمارة عصرية حديثة. أما الفيلات فقليلة لشدة ارتفاع قيمة أراضي البناء على الأرض السوداء حيث لابد من الحد الأقصى من الاستغلال بالكثافة الرأسية. وهنا نستطيع أن نرى كيف أن "جاردن سيتي" مثلا اسم على غير مسمى، بل وسخرية من فكرة "الجار دن سيتي" المعروفة في أوروبا منذ هوارد، فهي غابة من العمارات الضخمة أكثر منها كوكبة من الفيلات في بحر من الحدائق. ولكن الفيلا تعود فتسود على الرمال في مصر الجديدة وضواحي الشمال الشرقي حيث تملك ترف الانسياح الأفقي.

أما السكان، فهذه هي المحل المختار للطبقات الموجهة والمسيطرة والأكثر دخولا وترفيها وترفا. وقد حدثت هنا منذ الثورة عملية "تتابع سكني" تغير فيها نوع السكان. فقد كانت هذه هي المواطن المفضلة لسكني الأقليات الأوروبية الاستعمارية، مثلما كانت المقر الطبيعي للأسر الإقطاعية والرأسمالية والصناعيين من الوطنيين. ومع تصفية هذا وذاك، حلت بالتدريج صفوف من الطبقة الوسطى العليا والمثقفة الوطنية، مما بدا يخفف نوعا من حدة تضاريس الطبوغرافيا الاجتماعية في العاصمة.

فيما بين النقيضين، الأحياء الرقيقة الحال والغنية، تنتشر أو تنحشر الأحياء المتوسطة التي يتفق أنها متوسطة في الموقع الجغرافي مثلما هي في الموقع الاجتماعي والتي تتألف غالبا من الطبقات الوسطى المعتدلة أو العادية من الموظفين

والمثقفين أو التجار. فعدا الجانب الخلفي من الضفة الغربية، تغلب في فم الخليج وتسود في المنيرة وكل ما حولها وخلفها حتى حدود الأحياء المتواضعة في شرق المدينة، ثم تغلب على كل النطاق العرضي الممتد من الفجالة والظاهر وغمرة عبر السكاكيني حتى الوايلي والعباسية ثم في قطاعات كبيرة من ضواحي الشمال الشرقي. هذا عدا القطاع الأكبر والجنوبي من شبرا وروض الفرج. ومن الملاحظ أن خطوط السكك الحديدية داخل المدينة، قومية كانت أو ضواحي، تخترق عادة هذه المناطق السكنية المتوسطة (أو الفقيرة) حيث تخلق على طولها مناطق موبوءة وتخفض قيمتها الاجتماعية.

ماذا تعني هذه الخريطة الاجتماعية، وهل من مغزى للعلاقات التوزيعية بين الطبقات الثلاث؟. لعل أبرز ما يلاحظ هو أن مبدأ الفصل السكني سائد بعامة، بمعنى أن لكل طبقة منطقة، ولكل منطقة طبقة. وأهم من ذلك أن الفصل السكني سلمي، بمعنى أن الطبقات تتدرج من منطقة إلى أخرى كما تتدرج في السلم الاجتماعي. وبتفسير أوضح فإن منطقتي الطبقة الغنية ورقيقة الحال يندر أن تتجاورا متلاصقتين، بل الأغلب أن تندفع بينهما منطقة طبقة وسطى تفصل بينهما كما في منتصف المدينة على محور جاردن سيتي -المنيرة-القلعة.

وقد تتقارب أو تتواجه هاتان الطبقتان مباشرة، بل إن هذا أحيانا مطلوب لأن القوة الضخمة العاملة في الخدمة الشخصية والمنزلية في إحداهما تستمد من الأخرى، ولكن لابد حينئذ من حاجز طبيعي فاصل، كالنيل بين الزمالك وبولاق حيث يتجسم التباين والتناقض الاجتماعي ويصل إلى قمته، حيث تصل المسافة الاجتماعية إلى أقصاها والمسافة الجغرافية إلى أدناها، أو كما بين الروضة ومصر القديمة على مستوى أكثر اعتدالا..

أما عن الضوابط الحاكمة والكامنة خلف هذه الصورة، فيمكن أن نتساءل أولا عن عامل القرب أو البعد من قلب المدينة ففي كثير من المدن الأوروبية والأمريكية أصبحت مسافة بعد السكن عن القلب مقياسا طرديا للمستوى الاجتماعي والانتماء الطبقي، كما زادت ارتفع، والعكس. ولكن القاهرة لا تحقق هذه القاعدة إلا جزئيا (مصر الجديدة، المعادي وكل ضاحية منفصلة أو شبه منفصلة) وتعارضها أكثر (جاردن سيتي، والزمالك من ناحية، وإمبابة وشبرا الخيمة ومصر القديمة من ناحية أخرى).

فإذا بحثنا عن احتمال آخر، كالأرض العالية والمنخفضة في المدن الغربية الباردة، حيث الأرض المنخفضة مصايد للضباب والرطوبة، والأرض العالية صحية جافة ومشرقة، وحيث -بالتالي- "العالي اجتماعيا هو العالي جغرافيا، والواطئ اجتماعيا هو الواطئ جغرافيا" وجدنا أنفسنا في القاهرة إزاء قلب رئيسي وإن يكن غير كامل للقاعدة فشرق المدينة الأعلى تضاريسيا يحمل الأحياء الرقيقة الحال والعمالية والشعبية، بينما غرب المدينة المنخفض على النيل وفي جزره وعلى ضفته الغربية يحتشد السكن الغني. ولكن يعود فيشذ قطاع كبير في بولاق والشمال (شبرا الخيمة وما حولها وإمبابة) فهذه كلها أراض منخفضة وأحياء متواضعة.

هل هو إذن ضبط الرياح السائدة؟ فقد لوحظ في الغرب أن السكن الراقي يسعى إلى أن يحتكر غرب المدينة حيث مستقبل الرياح الغربية السائدة، طازجة غير ملوثة. وفي مصر الحارة، فليس ثمة شك أن الرياح البحرية السائدة مرغوبة جدا وأن لها ثمنا يدفع في قيم الأرض أو الإيجار، وإن المدينة الإقليمية المصرية المتوسطة تنجذب أحياؤها السكنية الراقية إلى الشمال كما تنجذب البوصلة المغنطيسية. ولكننا في القاهرة نصطدم بشبرا الصناعية وإمبابة وأحيائها المتواضعة في أقصى الشمال، وإن كانت مصر الجديدة وضواحي الشمال الشرقي مكشوفة للرياح "البحري" منطلقة بلا عائق.

لا يبقى إلا أن تكون جاذبية النهر، فللجبهة المائية المنعشة في مناخ حار، فضلا عن المنظر الطبيعي في اللاندسكيب مغنطيسية لا مفر منها على السكن الراقي، ومن الواضح أن هذا يمثل جزءا كبيرا من الحقيقة في القاهرة: اعتبر معظم الضفة الغربية ثم الجزيرتين، فجاردن سيتي، ومع ذلك فليس هو كل الحقيقة، حيث تقع بولاق وإمبابة على النهر بينما تقع مصر الجديدة أبعد ما تكون عنه. على أن هذا لا يقلل من أهمية عامل الجبهة المائية، فحتى داخل منطقة الطبقة الواحدة، راقية كانت أو متوسطة، يطل على النهر عادة أفضل المساكن وتقل درجتها كلما بعدنا عنه.. وفي الضفة الشرقية مثلا ينخفض مستوى السكن كلما بعدنا عن النيل في انحدار مستمر من الراقي إلى المتوسط إلى الفقير، ولا نقول إلى سكن الموتى في أقصى الشرق!

والخلاصة الصافية؟ لا شك أن كل هذه العوامل تعمل مجتمعة ولكنها متعارضة جزئيا، وليس فيها مفتاح أحادي. والسبب أن القاهرة مدينة معقدة مركبة

بحكم تاريخها الطويل وتنوع أرضيتها بوصفها موضعاً ما بين الجبل والنهر وما بين الصحراء والوادي، ولكن من الممكن أن نقول إن ضابط الجبهة المائية فيها أقوى بعامة من عامل الرياح البحرية، وهذا بدوره أقوى من عامل التضاريس.

ذلك إذن وجه المجتمع القاهري في بيته الجغرافي أو بيئته الطبيعية. غير أنه إن حددت الطبقة ملامحه الأساسية، فإن الأقليات تكملها بلمسات نهائية ترصع صفحته دون أن تخرج عن الفرشة القاعدية. ولقد حدثت تغييرات مهمة في العقد الأخير في حجم وتوزيع الأقليات الأجنبية والجاليات الأوروبية نتيجة "للخروج الأبيض" مع التحرير، ولكنها ظلت طويلا قبلها ذات وزن كبير حيث بلغت عدة عشرات من الآلاف، وإن قد كانت دائما أقل منها في الإسكندرية بالذات.

ففي مرحلة الأوج في الثلاثينيات والأربعينيات، كانت أبرز حقيقة عن توزيع الأوروبيين في القاهرة تجمعهم في النصف الشمالي كان توزيعهم أقرب إلى قلب المدينة، وكان مركز الثقل في جاردن سيتي وقصر الدوبارة وفي الإسماعيلية والتوفيقية، حيث كانت نسبتهم تزيد عن نصف السكان في كثير من الشياخات. وحول هاتين النواتين، وعدا الزمالك، كانت تجمعاتهم تستمر متصلة ابتداء من الفرنساوي حتى باب اللوق ومن غمرة حتى شبرا، وفي كثير من شياخات هذه الحلقة كانت نسبتهم تتراوح بين نصف وخمس السكان.

وأهم معاني هذا التوزيع هي:

أولا: ميل طبيعي للأقليات والجاليات الأجنبية إلى التجمع وعدم الانتشار تماما بين الوطنيين.

ثانيا: انجذاب (غير مألوف عند الوطنيين ولكنه منطقي للأجانب) نحو قلب المدينة التجاري حيث يربطون بين العمل والسكن أو حيث يظهر السكن التجاري (الفنادق والبنسيونات..إلخ).

ثالثا: يتبع توزيع الأقليات الأجنبية الإطار الطبقي العام. فكانت العناصر الأكثر غنى ونفوذا منهم ترتبط بالأحياء السكنية الراقية كجار دن سيتي والزمالك، والعناصر الأقل مكانة بالأحياء البورجوازية المتوسطة، ولكنها في جميع الحالات كانت بعيدة تماما عن الأحياء الوطنية الفقيرة.

رابعا: ارتبطت بعض الجاليات ببعض المناطق تقليديا أو بصفة خاصة: الإنجليز بجا ردن سيتي والزمالك عدا المعادي المنفصلة، واليونانيون والطليان واللفانتيون بداخل شبرا تجاه المحطة (الشوام في قصوره الشوام خاصة).

خامسا: وأخيرا، وعلى الرغم من بعض ملامح الانعزال النسبي عن الوطنيين، فلا مجال قط للحديث عن عزل سكني صارم بالمعنى المعروف في العواصم الاستعمارية في أفريقيا أو آسيا. بل إن بعضا من العناصر الأقل ثراء من الأوروبيين اندمج تماما في كتلة السكن الوطني، ومن الناحية الأخرى لم تظهر قط مدينة أوروبية مقفلة بالمعنى الاستعماري وحتى الإنجليز على الرغم من السيطرة الاستعمارية وتقاليد العنجهية الأنجلوسكسونية تحايلوا على العزل السكني المقنع من خلال الانفصال الجغرافي الطبيعي حين نموا لأنفسهم ضاحية المعادي ولكنهم فشلوا، وغزتها العناصر الوطنية. وهذا كله يذهب ليؤكد أن الفارق الحضاري والجنسي بين الأوروبيين والمصريين كان دائما على غير ما عرف الاستعمار في كثير من بلاد العالم الثالث، وإنه عجز عن أن يخلق في مصر أي شبهة من "حاجز لوني

أما من الناحية الدينية، فقد كانت هذه الجاليات الأوروبية ذات التركزات غير العادية في قلب المدينة أو قربه تتخذ مؤسساتها الديانات الوطنية. وحتى بعد تصفية هذه الأقليات والجاليات، فمازالت مؤسساتهم تحتشد في ذلك الوسط التجاري: مثلا كاتدرائية الإنجليز بماسبيرو، كاتدرائية سان جوزيف بعماد الدين، عديد من الكنائس في باب اللوق والفلكي وكنيس الإسرائيليين في شارع عدلي.. إلخ.

هيكل العاصمة

اقاليم القاهرة الكبرى

من المسلم به أن القاهرة، بتاريخها الألفي العريق، مدينة ناضجة مورفولجيا من وجهة جغرافية المدن، بمعنى أنها مرت بمراحل وأدوار عديدة من التجربة والخطأ، وإعادة التجربة والتصحيح، حتى استقرت واستوت خطتها وبنيتها العامة على أنسب تنضيد وترتيب ممكن لبيتها من الداخل.

ومن هذه الزاوية، فالمفروض أن تكشف القاهرة لدارسها بسهولة عن هيكلها الأساسي وعن الخطوط العريضة في مورفولوجيتها. غير أن الواقع أن القاهرة مدينة معقدة نوعا من حيث الموضع الجغرافي الذي يحتويها. فاختناقها بتلال المقطم في الشرق منع بصرامة توسعها في هذا الجانب وفرض على نموها اتجاها أحاديا أو قل نصفيا نحو الشمال والغرب أو الشمال الغربي، وبذلك حد من حريتها في الانطلاق نحو النمط الدائري وحصرها في نمط مروحي بالتقريب.

ونقول النمط الدائري لأنه باستثناءات ليست قليلة الأهمية ومع تحفظات معينة فإن المدينة أي مدينة حين تترك لنفسها في بيئة جغرافية سهلية تخلو من العقبات الطبيعية فإنها في الأعم الأغلب تميل بالنظرية إلى أن تنمو حول قلبها، كجذوع الأشجار، على شكل حلقات متتابعة نحو الأطراف، وتكتسب محيطا دائريا أو شبه ذلك. والسؤال هو: ما النمط، ما المنطق البنائي القائد أو الحاكم الذي يمكن أن نستشفه من خلال وجه القاهرة بملامحه وعناصره ووظائفه وديناميـاته التي طالعنا وحللنا؟

واضح أن سلسلة المقطم كانت بمثابة خط القاعدة الذي ارتكزت عليه القاهرة في نموها، وبينما لم يعد اجتيازها للنيل عقبة على الإطلاق، على الأقل منذ القرن الماضي، فقد ظل محور المقطم منذ البداية إلى اليوم عقبة طبيعية صارمة. ومن الناحية التاريخية، وعبر العصور الوسطى، فإن أحضان المقطم المباشرة التي نشأت فيها هي بطبيعة الحال "النواة النووية" للمدينة مثلما كانت قلبها المركزي في مراحل طويلة من حياتها.

وقد كان نمط توزيع الوظائف والمباني والسكان في مدن العصور الوسطى، لاسيما الإسلامية منها، بسيطا في جوهره يتركز -كما يلح علينا ديكنسون- حول السلطان: فكان مقر الحاكم عادة هو قلبها يحيط به قصور الأمراء والكبراء ثم التجار ثم العامة وصغار الناس حتى إذا وصلنا إلى هوامش المدينة ساد الزراع العاملون في حقول المدينة وأرباضها

وشيء من هذا توحي به القاهرة العربية الإسلامية. فدائما منذ الفتح العربي وقبل أن تبنى القلعة في الأيوبية ولكن بعدها بصورة أقطع، كان مقر الحكم لصيقا أو يكاد بسفوح المقطم في الشرق ، ومن حوله كانت تترى أحياء الأعوان والمقربين وأهل الحكم ثم كبار التجار والحرفيين ثم العامة، بينما كانت بطائح وشطوط النيل التي ترصعها المستنقعات والبرك ويهددها خطر الاستبحار من فترة إلى أخرى منطقة الزراعات وتموين المدينة، وأحيانا ملاعب ومتنزهات..إلخ.

وقد يمكن أن نعبر عن هذا فنيا بأن نقول إن نمط القاهرة العربية المورفولوجي كان حلقيا، وإنما بالتقريب على شكل نصف دائرة قطرها خط المقطم. وربما أضفنا أن الهيكل العريض لهذه المورفولوجية يذكر - مع كل الفروق الموضوعية والتاريخية بالطبع- بهيكل مدينة شيكاغو المشهور في دراسات المدن، حيث يتركز القلب على

جبهة بحيرية قاطعة وحيث يأخذ توزيع أقاليم المدينة الحلقية من الداخل نظاما نصفيا وليس دائريا كاملا.

ولكن قاهرة اليوم أشد ما تكون تعقيدا بالمقارنة. فمنذ القرن الماضي أخذت المدينة تهجر ظلال المقطم وتزحف نحو النيل، وأخذ كثير من أجهزتها ومؤسساتها ووظائفها الحيوية تصرف بالتدريج من قلبها القديم في شرق المدينة وتهاجر بانتظام متدفقة نحو الغرب. ولقد بدأت هذه الأعراض مع محمد علي ولكنها تسارعت بعده منذ إسماعيل خاصة، ولم تكف منذئذ حتى الآن. مقر الحكم، مثلا، كان القلعة أيام محمد علي، ولكنه هو نفسه بدأ بشتل وزرع أجهزة إدارة جديدة وعديدة في منطقة الأزبكية، إلى أن نقل إسماعيل الحكم فيها نهائيا إلى عابدين. هذا مجرد مثال دال، ولكن كل تاريخ القاهرة الحديثة إنما هو عمليتان إيكولوجيتان رئيسيتان: من الخارج نمو وتوسع نحو الشمال والغرب، وإعادة توزيع وترتيب لأجهزتها وأنسجتها وأعضائها ووظائفها واستعمالات الأرض فيها من الداخل.

ولا شك أن أبز المظاهر المؤثرة والملموسة لديناميكا القاهرة، كما تنبثق من تفاعل هاتين العمليتين، هي هجرة القلب التجاري المركزي. وهي نتيجة حتمية. فقلب أي مدينة هو في الحقيقة عاصمتها "، هو في الدولة تماما. وكما أن هناك علاقة إيقاع غير منظورة ولكنها محققة بين حدود الدولة السياسية وبين العاصمة السياسية، ينبضان، معا ويتأرجحان معا، فكذلك قلب المدينة: يرتبط وثيقا ويتذبذب حثيثا مع حدود المنطقة المبنية، كلما اتسعت حدود هذه، كلما تحتم على القلب أن يتحرك معها ليؤمن مركزيته ويحتفظ بتوسطه. هكذا القاهرة: كما نمت حدودها نحو الشمال والغرب أساسا، نحو الشمال والغرب بالدقة تحرك قلبها.

ومن السهل ربما أن نتبع حركة القلب التاريخية هذه من الأزهر والموسكي في مطالع القرن، إلى العتبة والأزبكية بعد ذلك، إلى الإسماعيلية خلال فترة الحرب الثانية وما قبلها. وبمزيد من التحديد فقد كان كليرجيه في الثلاثينيات يعد عين قلب القاهرة التجاري النابض حول شارع عماد الدين. ومنذ ما بعد الحرب وصلت الحركة إلى نقطة التقاء شارع ٢٦ يوليو وطلعت حرب (فؤاد وسليمان سابقا)، ومن بعدها انحدر الزحف على طول شارع طلعت حرب وقصر النيل وتجاه ميدان التحرير حتى شارفه، وحتى أصبح هذا من مراكز قلب القاهرة وقطب الجاذبية فيها، حيث أخذت المؤسسات والأجهزة والهيئات المختلفة من تجارية ومراكز خدمات وإدارات

وشركات وفنادق كبرى تتقاطر حوله، وأخذ هو يكتسب صبغة أكثر وأكثر تجارية وحركية.

وكمقياس اختبار أو كرموز لهذه الحركة، اعتبرت هجرة فندق شبرد من الأزبكية، والجامعة العربية من الداخل، إلى النيل، ثم قيام الهيلتون، ولا تنس قيام المجمع قبل الجميع. كذلك لاحظ زحف وانتقال منطقة الأضواء (bright light area المسارح ودور السينما واللهو وشرنقة المقاهي والمطاعم الكثيفة التي تغلفها.. إلخ) من شارع عماد الدين في الثلاثينات إلى شارع طلعت حرب الآن..

لقد تمت دورة بندول كاملة في حياة المدينة وقلبها، انتقل فيها من سند الجبل إلى شاطئ النهر، ومن ضلوع المقطم إلى ضفاف النيل، وتلك نتيجة منطقية بالنسبة إلى قلب تحولت مدينته من مدينة أكروبوليس إلى مدينة فيضية، ومن موضع منحدر تلي إلى موضع يمتطي نهرا ويضع قدما في ضفة وقدما في الأخرى حتى أصبح هذا هو محور المدينة الجديد.

ولا شك أن هذا الزحف الهادف إنما يتم في جزء كبير منه تحت مغنطيسية وجذب النمو العمراني الضخم، والمتفجر أخيرا، على الضفة الغربية بالذات وحيث ينتظر المزيد من النمو والانسياح. وهو أيضا يحقق النظرية الأصولية من أن القلب يزحف نحو الأحياء السكنية الراقية. كذلك فإنه يدل على أن القلب برقعته المزدحمة الحالية بدأ يكتظ ويضيق بمؤسساته وأجهزته الكثيفة والمكدسة، ويمثل ما أن بعض هذه المؤسسات بدأت هي الأخرى تضج وتضيق بضغطه وتسعى إلى أطرافه الأكثر هدوءا واتساعا لأغراضها. خذ مثلا دور الصحافة الكبرى في القاهرة: تجد منذ مدة هذا الاتجاه إلى الابتعاد عن عين القلب إلى هوامشه، ابتداء من قيام دار أخبار اليوم في شارع الصحافة، إلى انتقال الأهرام أخيرا جدا إلى شارع الجلاء. ومن قبل يلاحظ الموقع الهامشي من القلب في بقية دور الصحف: الجمهورية تجاه الأزبكية، الشعب في القصر العيني، الهلال في المبتديان..إلخ. كذلك مرافق الإدارة المركزية، لم يعد القلب الاداري يتسع للمزيد منها وبدأ يلفظ نموه بعيدا، وأحيانا خارج القلب تماما، كوزارة الزراعة بالدقي من قبل ووزارة الإصلاح الزراعي من بعد، وكعدد آخر من الوزارات والمصالح والمؤسسات الحكومية.

هذا، وإذا كان لنا أن نحدس المستقبل من مؤشرات الحاضر، فإن ضغط القلب من أجل المكان سيفرض نفسه قريبا حين يصطدم بالنيل ومن ورائه لاسيما ملاعب

الجزيرة التي هي حقيقة استغلال سيئ ومسرف لموقع محوري والتي قد تحبط حركته وتعوق نموه الطبيعي، ولكنه صراع وظيفي لا يمكن أن تكون الغلبة فيه إلا للقلب في النهاية. وقد لا يكون قيام فندق عالمي تجاري ضخم -شيراتون أو سفنكس- على رأس الدقي السكني في قفزة ضفدعية ضخمة وشاذة، بلا مغزى ودلالة على هذا الإحباط الذي تفرضه تلك الملاعب مؤقتا.

كذلك فإن كتلة بولاق الضخمة والفقيرة المتاخمة، التي تبدو اليوم ناضجة تماما لجراحة كبرى في إزالة العشش، هي بالقوة الاحتياطي والرصيد الطبيعي لتوسع القلب في بعض جوانبه في المستقبل. وهي قد بدأت بالفعل تتلقى أو تستشعر وقع بعض فروعه وامتداداته على طول كورنيش النيل في ماسبيرو (مبنى الإذاعة والتلفزيون مثلا..إلخ).

هذا عن حركة القلب غربا، والمهم والسؤال الآن: ما الذي حدث للمنطقة التي هاجر وانحسر عنها القلب بالتدريج؟ إنها ببساطة -ولكن ببسالة، إذ أن المقاومة تستمر عقودا- تفقد بالتدريج أجهزة وعناصر التجارة والنشاط التجاري التي هي مقومات القلب وصفته الأساسية. فالقلة من محلاتها ومؤسساتها الأكثر طموحا والأقدر على التكيف الحديث تغادره إلى القلب الجديد كلية أو قد تتخذ لنفسها فيه فروعا عصرية، والكثرة تذوى وتذبل بالتدريج ويتضاءل روادها ودخلها وربما ظلت تقاوم اعتماداً على ولاء الجمهور واسع الدائرة ولكنه بسيط الحاجات متواضع الطلبات والقدرات، وقد تتحول إلى مخازن وموردين للجملة أو متاجر محلية للحي أم حتى للجيرة، وفي نهاية الدورة قد تصفي أعمالها فإذا بمبانيها ومنشآتها تتحول إلى استعمالات جديدة، سكنية أساسا، أو قد تعدل لتستقبل ورشا صناعية صغيرة لبعض الحرفيين أو المولين..إلخ. وبعبارة أخرى، تتحول المنطقة التي تراجع عنها القلب القديم إلى مجرد أطراف وهوامش أو رقع من جسم المدينة العادي بحلقاته الوظيفية المألوفة خارج القلب كالحلقة الخارجية أو الحلقة الداخلية كما تسمى.

وعلى الفور فإن هذه العملية تضع أيدينا على ظاهرة فذة فريدة تختلف بها القاهرة عن المدينة الدائرية الكاملة، وتعد قلبا للعملية الشائعة في ديناميات ونمو أقاليم وحلقات المدينة الداخلية. فالقاعدة مع نمو المدينة أن يتوسع القلب بالزحف على الحلقة الداخلية المحيطة به، فتتحول وظائفها من خليط من السكن والصناعة الخفيفة عادة إلى التجارة، ولكن التحول هنا في المناطق الشرقية من القاهرة والتي كانت

القلب القديم، ثم على العكس بتراجع وانحسار القلب، وبالتحول من التجارة إلى السكن المختلط بالصناعة.

على أن المهم أن هذه الحلقات الجديدة الوليدة هنا تكون ضيقة مختنقة نوعا وربما غير مكتملة الخصائص والمعالم في هذه القطاعات، لاسيما إذا ما قورنت بمثيلاتها على الجوانب وفي القطاعات الأخرى من المدينة، ولا تتسع إلا مع وبقدر المزيد من تراجع القلب وانحساره عنها. والنتيجة الصافية أن مورفولوجي حلقات المدينة الداخلية التي كانت في العصور الوسطى نصف دائرة قد أصبحت تخضع للنمط الدائري بصورة عامة، إلا أنه هنا منبعج مختنق في شكل مروحي.

هذه العملية كلها لا شك بدأت في القرن الماضي حين أخذت القاهرة الحديثة تستشعر هزة التحول الحضاري الجديد، ولا جدال أنها ظلت تشتد مع شدتها، ولكنا لا نستطيع أن نتتبعها بالعين المجردة إلا في الأجيال والعقود الأخيرة حيث دخلت مرحلة النضج. هذا ويلاحظ في تلك الفترة أن طغيان المصالح والمضاربات والنشاطات المالية الاستعمارية والجاليات الأوروبية على اقتصاديات المدينة قبل التحرير، ولاسيما في قاهرة مابين الحربين، أعطت منافسة خطيرة وقاتلة لمشروعات وأعمال ومتاجر البورجوازية الوطنية المتوسطة والصغيرة، مثلما نشرت تطلعات الأوربة والتغريب بين الجماهير...إلخ.

وهذا كله أتى لحساب القلب المصري "الأوربي" الحديث، وعلى حساب القلب التقليدي الآفل، وساعد على تصفيته وذبوله بالتدريج. والكثيرون ما زالوا يذكرون أو لا شك سيتذكرون حالات إفلاس كثيرة من محلات الموسكي والأزهر..إلخ في تلك الفترة، أما اكتمال الهجرة من القلب القديم إلى الحديث فيرمز إليه ببلاغة تحول مركز الثقل والأهمية من شارع الموسكي إلى شارع طلعت حرب، ومن ميدان العتبة إلى ميدان التحرير. وقد يمكن أن نعتبر العتبة هي الحد الفاصل اليوم بالتقريب بين القديم والحديث في قلب القاهرة التجاري. وفي الوقت الحالي، أصبح القلب القديم - الموسكي والأزهر والغورية..إلخ- يلعب يلعب في كيان المدينة دورا أقل حيوية وثقلا مما كان في الماضي، ويأخذ بازدياد دور المعقل وخط الدفاع الأخير للقديم في كل شيء..

وعلى الفور، لن يخطئ أحد أن ها هنا ثنائية أساسية في قلب العاصمة التجاري: قلب جديد نابض متنام، عصري حديث الطراز، في الغرب، وقلب قديم

عتيق الطراز، آفل وفي انكماش مطرد، في الشرق. وهذه الثنائية الحضارية القاعدية التي تميز هذا العالم الثالث منذ عصر الاستعمار الأوروبي والاحتكاك الحضاري مع الغرب. ومن الطريف في القاهرة أن نلاحظ الاتفاق بين المواقع الجغرافي والموقع الحضاري داخل هذه الثنائية: فالقلب الشرقي القديم في الشرق، والغربي الحديث في الغرب! على أن هذه الثنائية مرحلية في جوهرها وإن طال الأمد، ولنا أن نتوقع، ولكن ليس قبل عقود على الأقل، أن يذوب القلب القديم في الجديد لأي نهاية المطاف مع اكتمال التحول الحضاري والتقدم المادي.

وهنا وفي النهاية تفرض نفسها مقابلة لها مغزاها وطرافتها، وذلك مابين هذه الثنائية الحضارية وما رأيناه من قبل من تجانس بشري في السكان. فإذا كان قلب القاهرة يلخص التنافر الحضاري، فان تركيب سكانها يؤكد أساسا التجانس البشري. وهذا وذاك على العكس تماما من المدينة الأمريكية: تنافر جنسي وبشري حاد وصارخ، وتجانس حضاري إلى درجة التنميط الممل ربما. ولعلنا لا نغالي إذا قلنا في هذا الصدد أن القاهرة أقدم عواصم العالم القديم ترمز له وتلخصه مثلما ترمز للعالم الجديد وتلخصه مدينة من أحدث عواصمه كواشنطن أو نيويورك...

الفصل الأول

القاهرة.. بنت الصحراء

القاهرة ، أكبر المدن الصحراوية (٤١٤ كيلو مترا مربعا، ٣٤٨,٠٠٠ ٣ نسمة حسب تعداد سنة ١٩٦٤ التقديري) لها لون صحراوي، والذي شادها هو إيمان ربيب الصحراء، وأفضل لقاء لها هو من ناحية الصحراء عبر طريق للسيارات يبدأ من البحر الأبيض المتوسط ويمتد ١٣٠ ميلا وسط بيداء متموجة غير مقببة إلى أن يتصاعد خلف الأهرامات ليهوي إلى واحة الوادي، فيتراقص على مساره من نفث عاصمة كبيرة أطياف ألوان مابين الرمادي والبني، حتى الطائرات فإنها لا تتفادى رؤية الصراع بين الحياة والموت عند اقترابها إلى ممر الهبوط فوق كثبان من الرمال الجرداء.

والقاهرة مشادة من بطن الصحراء التي تتشبث بحضنها فالأهرامات العجائب التي أقامها خفرع وورثته قد تألفت من آلاف آلاف كتل من حجر رملي جرى نحتها أولا من تلال المقطم ثم دفع بها إلى الغرب طوفا على الماء عبر الوادي إذا النيل في عز فيضانه مجتازة موقع المدينة اليوم، وشاع بعد ذلك استخدام هذه الكتل الميسرة من لحم الصحراء المتجمد في عمارة الأمراء المسلمين للمساجد والقصور.

أما اليوم فقد رجع جانب كبير من المدينة إلى صحراء النسيان، فقاعة الذهب التي كان يطل منها الخليفة المعز على حفلات بلاطه من خلف ستارة نسجها ووشيها من خيوط الذهب قد اندثرت هي والحجرات الأربعة الآلاف التي كان يضمها قصره بما تحويه من رقيق جلب من اليونان والسودان الذي كانوا يحفون به ليكونوا تحت رهن إشارته، وكذلك لم يبق أثر لبهو الزبرجد في الديوان الكبير، وتلال المقطم التي جاءت

منها الأهرامات والتي تلقى منها الشمس عند مطلع الفجر أول تحية لها على أبي الهول في الغرب لا تزال تتعلق بها مساجد خربة كأنها تهويمات لم تتم من وحي أسطورة قوطية.

إن الصحراء تغزو المدينة سواء في ذلك طرقاتها الفسيحة أو الأزقة المتعرجة في الأحياء القديمة، وتهب رياح الخماسين من ليبيا في شهر مايو تحمل معها ترابا ناعما يتسرب من خلال أحكم النوافذ فيضفي على المدينة - زرعها وأبنيتها - كساء من مسحوق رمادي. إن أهداب المصريين الطويلة هي سلاح ضد التراب، لا مجرد زينة ..

ومباهج القاهرة - شأنها شأن مباهج الصحراء - تزداد جلاء لأنها فوق لوحة مترية. عديدة محال بيع عصير وقصب السكر لإرواء الحلوق الجافة من العطش الشديد. وفي أركان معتمة رثة الخط تتألق زهور بألوان متوهجة. وحينما تغيب الشمس أخيرا بعد نهار قائظ من وراء فندق هيلتون تسري من فوق أرض الطرقات رائحة فريدة هي خليط أنفاس الفل والياسمين وزخم وحوش الفلا.

والصحراء كالبحر، هيهات أن يقال عنها خلاء محصن، بل أنها ملتقى قوىً عديدة، وكما ربط البحر ما بين جزر اليونانية في العهود الخوالي، فإن الصحراء ربطت بين البعيد والبعيد من أقطار الشرق الأوسط، وقد وفد الزوار والسياح على مكان القاهرة منذ فجر التاريخ فهي وإن اتخذت اسما عربيا فقد حظي موقعها باهتمام كبير من قبل أن ينتشر العرب من جزيرتهم بزمن طويل فعند هذا الموقع الذي يزداد فيه النيل رحابة ليضم بين ذراعيه أرض الدلتا، وهي على شكل مروحة، أقام الفراعنة عاصمتهم منف (وهذا الهرم المدرج في سقارة وهو أقدم بناء من الحجر في العالم كله. لا يزال يطل على مقابر منف، تراه بالعين المجردة من أعلى العمارات في القاهرة) وقد أقام الفراعنة أهم مقابرهم فوق هضبة الجيزة، لا تبعد عن قلب القاهرة - ميدان التحرير - إلا مسافة ٤٠ دقيقة بالأوتوبيس رقم ٨ ومدينة عين شمس - هليوبوليس الآن يربطها بالقاهرة قطار المترو - كانت لها سمعة عالمية في العلوم، ولكهنتها فضل على هيرودوت وأفلاطون. وقد أطلق اسم عين شمس على واحدة من جامعات مصر الأربع.

وأشد زائري القاهرة تأثيرا عليها لم يأتوا ببضاعة التجارة، بل بأفكار دينية، فالقاهرة اليوم - شأنها في ذلك شأن مدن كثيرة - وليدة أحداث موجة من سلسلة أمواج المد البشري، تتناثر فيها شواهد عديدة على تعاقب الأديان. فقد أقام

العبرانيون (الذين ذكرهم القرآن باسم بني إسرائيل) في شرق الدلتا وقاموا بنصيبهم في صناعة الطوب، ثم استوطنت جاليات يهودية - قبل ميلاد المسيح بعدة قرون - على ضفاف النيل، وكان أكبر مراكزهم في الإسكندرية بالقرب من مصب فرع النيل الغربي، حيث شرح أفلوطين نظريته عن التوحيد بتعبيرات الفلسفة اليونانية، وقد تبنت الكنيسة نظريته عن "اللوجوس أو الكلمة " في شرح عقيدة التجسد الإلهي، ولكن العائلة المقدسة اختارت المدينة الرومانية بابليون في مصر- وهي مكان القاهرة اليوم- ملجأ لها عند خروجهم من فلسطين هربا من طغيان هيرود. ولا يزال الرهبان الأقباط يقودون زوار كنيسة أبو سرجة لمشاهدة قبو رطب حيث نام ((اللوجوس" وحراسه. بالقرب منها يوجد كنيس لليهود يحوي نسخة ثمينة من التوراة.

ولكن لا الكنائس ولا الكنيسات تغلب على أفق القاهرة، فهذه المدينة ليست باليهودية ولا بالنصرانية. إنها مدينة مسلمة نشأت بفضل دين محمد النبي العربي. هي عند المسلمين لا تقل جلالا عن مكة، التي تتجه إليها قبلة الصلاة في مساجد القاهرة، ولا عن المدينة مثوى الرسول. وإذا كان الأفق من حول القاهرة قد ارتسمت عليه منذ سنة ١٩٥٢ ظلال ناطحات السحاب وصروح أخرى هندسية، فإن العين لا تلحظ على هذا الأفق إذا ترامت نظرتها فوق الأسطح الغبراء إلا المآذن المشرئبة للسماء، يتردد منها صوت المؤذن للصلاة خمس مرات في اليوم.

وللقاهرة- لأنها مدينة صحراوية- ثروة نباتية تنفرد بها: زهور لا تنمو في الشمال إلا داخل بيوت من الزجاج وأشجار تضفي زينتها على ما حولها من قتامه، أشجار الكافور التي تخشخش أوراقها الرقيقة، أشجار السنط التي لا ترهب الجفاف، أشجار الجميز، أشجار التين البنغالي التي تتهدل منها فروع متجهمة لتنبت منها جذور أشجار جديدة معتمة، ثم النخلة التي جعل القرآن ولادة المسيح تحتها. وإذ كانت السماء لا تمطر إلا نادرا فإن اللون الأخضر يشبه على الدوام صفرة مغبرة..

ولكن دع عنك النبت والحجر، فإن الذي يجعل القاهرة فريدة بين المدن الصحراوية إنما هو هذا النهر الذي يهبها الحياة، فالمدن الأخرى التي تقوم في الصحراء.حيث الواحات إنما يغلها العطش ويهددها، أما القاهرة فالصحراء عندها يشقها النيل- أطول أنهار العالم القديم- يحمل إليها العطايا من شاطئ الأطلسي عبر الغابات والأحراش والجبال والوهاد في إفريقية الوسطى.

الفصل الثاني

القاهرة.. بنت النيل

منذ أن امتنع ورود ماء فيشي للقاهرة، لا مندوحة لكل من يسكنها أو يزورها من أن يكون شربه وقفا على ماء النيل. هذا النهر الذي يلاحقه شعار: من شرب منه عاد إليه، وأصدق منه أشعار الفرس: من ارتوى منه لم يطق السلو عنه. أما للفلاح فماؤه، وإن عكر فهو نعمة فيها الحياة، فالناس تتشبث بهذا النهر وتلوذ به، ففي فراقهم له عذاب الإشراف على الهلاك.

وهذه العبارة الأخيرة ليست من وحي بلاغة خطابية، لأنك لو شرقت أو غربت عشرة أميال بعيدا عن شريط الماء وضللت السبيل فستموت عطشا إن لم يتداركك البدو أو جماعة من المنقبين عن البترول، فالمطر نادر ولولا النيل لكانت القاهرة بقعة بلا اسم في بيداء تمتد بلا انقطاع من جبال البحر الأحمر إلى شاطئ الأطلس عبر الصحراء الكبرى..

أما أصدق شعار للنيل فهو المستمد من لونه، فاللون المفضل عند عجائز العقيلات في إنجلترا لحفلات الرقص يوصف بأنه أخضر نيلي. فاقتران النيل بخضرة يختص بها، اللهم عند الفجر حين يكتسي بغلالة جالت عليها الفرشاة التي رسمت ريش الطاووس، أو عند منتصف الليل حتى يكون لسطح الماء لمعة الفولاذ.

أما الوصف الذي لا يلحق النيل فهو إباء الثبات، فإن مجراه قد خضع ككل شيء في الوجود لتصاريف الزمن. والخضوع هنا تنظيمي، للقضاء على نزوات النهر في الماضي. إن النيل لمصر هو شريان قلبها. وكان أول بناء أقامه العرب حين رفعوا

على مصر راية الإسلام هو مقياس النيل، عند الطرف الجنوبي لجزيرة الروضة، ولا يزال هذا المقياس ماثلا للعيون وإن أقيم فوقه سياج حديث (وكان للفراعنة مقياس للنيل في الأقصر وغيرها من المدن) ومقياس النيل بئر عميق كسيت جدرانه بالحجارة، في وسطه عمود له تاج من طراز كورنثي. و"الذراع" هو وحدة القياس المبين عليه. إن استنباء مقياس النيل أشد لزوما وأجل خطرا من التكهنات بحال الطقس عند الأوروبيين قبيل العطلات الصيفية، فعلى مقدار ارتفاع المياه في المقياس يتوقف الغد: إما خصب وإما جدب..

والموعد المرتقب لوصول فيضان النيل من أواسط إفريقية يقع في أواخر أغسطس. حينئذ تخرج المدينة كلها للترحيب بمقدمه في احتفال يسمى "وفاء النيل" أما في السنين التي يخشى فيها أن لا يفي النيل كعادته، فكانت طوائف المبتهلين تخرج من شوارع القاهرة على الشاطئ الشرقي وعلى رأسهم السلطان ومعه رجال الأديان جميعا -أئمة المسلمين وقسس القبط وحاخامات اليهود- فيقيمون صلاة جامعة للاستسقاء. كل يقرأ في كتابه المقدس -ليمن الله عليهم بنيل واف عميم. وكان الفراعنة في القديم يحسبون الفيضان من دموع إيزيس وهي تبكي على أوزيريس، وكانت لهم طقوس تتصف بالقسوة، تطورت مع الزمن حتى وصلتنا وهي رحيمة، إنها طقوس زفاف النيل العاشق وعروسه "عروس النيل" كانت في القديم فتاة يضحى بها كما كان يضحي أهل أثينا ببعض فتياتهم على قرون "مينا طور الغول الذي نصفه إنسان ونصفه ثور، ثم أصبحت العروس دمية في حجم فتاة.

والآن تتولى السدود تنظيم النهر، فلن يتكرر جفاف شهر يوليو الذي يعقبه، بشكل درامي، غمر الماء فوق شواطئه الطينية العامرة بالفئران. ولم يعد يتألف موكب الزوارق للاحتفال بالفيضان، وإذا علا ماء النيل في أوائل الصيف فإنه علو قليل، حينئذ يشكو أهل القاهرة من الرطوبة تضاف إلى الحرارة، فيهرب الأغنياء منهم إلى الإسكندرية، رطبة هي أيضا ولكنها أندى نسيما، دع عنك شكوى أهل القاهرة أيضا من كثرة البعوض.

لقد بدل النيل مجراه على مر الزمن فتبدلت أيضا مرافقه، فأقدم موانئ النيل على الشاطئ الشرقي للقاهرة (أما منف فهي على الشاطئ الغربي) كانت بالقرب من موقع بابيليون الرومانية إلى الجنوب من القاهرة بنت اليوم. وفي القرون الوسطى كانت الميناء هي "المقس" بالقرب من الموقع الذي يحتله الآن فندق الكونتننتال

وحديقة الأزبكية، وحي المتاجر والملاهي -بطابعها العصري- الواقع على يسار خط ممتد من ميدان المحطة "باب الحديد" إلى باب اللوق عبر الأزبكية، كان أرضا عامرة بالبساتين والحدائق في أوائل القرن التاسع عشر تغمرها مياه النيل في كل صيف. وفي القرن الثامن عشر كانت الأرض التي تحتلها حديقة الأزبكية مكانا لبحيرة متسعة (وقد تقلص حجم هذه الحديقة على أثر التخطيط الحديث لمدينة القاهرة) ثم انحسر ماء البحيرة وجفت أرضها بحيث استطاع نابليون أن يستعرض فوقها جيشه. أما ميدان باب اللوق -كما نعرفه اليوم- بسوقه ومحطة الضاحية حلوان -فقد كان القرون الوسطى مرفأ القاهرة- بابها من ناحية النهر بجزيرته "الجزيرة الوسطى الآن"، ثم اندماج حي بولاق في بقية أحياء السكني وضاع بينهما -كما ضاعت شلزى في لندن، ولكنه كان حتى أيام نابليون الباب النهري للقاهرة، وكان الذين يصلون بالسفن إليها وينزلون عند بولاق لا يتبينون منظر المدينة لكثرة أكوام النفايات الشاهقة كالجبال مابين النهر وسور المدينة.

ومجرى النيل لم يتبدل فحسب، بل جرى عليه عدوان الأسمنت المسلح، وكذلك الحال مع تلال النفايات فقد تسلقها عديد من البيوت أو غطتها صفوف من الأشجار.

وكان يشق قلب القاهرة إلى مطلع هذا القرن خليج كان أول مجرى يتلقى مياه الفيضان تتدفق إليه من مصب اندثر مكانه الآن، ليسير بعد ذلك في اتجاه شارع الموسكي، وكان هذا الخليج يضفي -فعلا لا مجازا- على المنازل المطلة عليه عطور مدينة جديرة بأن تسمى "بندقية الشرق"، وقد حل هذا الخليج محل القناة التي أنشأها الإمبراطور الروماني تراجان لربط وادي النيل بخليج السويس عبر شرق الدلتا، وقد بطل استخدام هذه القناة إلى أن جددها عمر بن العاص، أول حاكم مسلم لمصر، ليتسنى تصدير الغلال من مصر لبلاد العرب. وشارع الخليج الآن -وكذلك شارع الكورنيش- هو أطول شوارع القاهرة، إنه شارع عريض لا يسلم من الدمامة، وعمدان النور فيه قميئة مصنوعة من الألومونيوم اسمه الآن شارع بورسعيد. حقا إن أسماء الشوارع أسرع من مجاري الأنهار في التبدل.

وكان النيل في مطلع القرن التاسع عشر -كالبوسفور- بمثابة الهوة المخفية تحت قصور الحكام، يلقى فيها بمثيري المتاعب من الرعايا وهم موثوقين لتتلقفهم أحضان نهر لا ندري هل له عشق الذكر أم عشق الأنثى. أما اليوم فقد اختفت هذه الذكريات الأليمة وصار النهر عنصر وداعة ورقة في مدينة تتصف بحدة الملامح والطبع.

وأما فندق سميرأميس يقف نوتيه سمر الوجوه لتلبية رغبة من يريد من أهل

البلد أو الأجانب استئجار فلوكة، وأغلب هؤلاء الرجال من أسوان في أقصى الجنوب. وأجرة النزهة لمدة ساعة هي خمسة شلنات، وما إن تخطو فوق صقالة مهتزة حتى تتراجع بعيدا إلى الوراء كل ضجة ورائحة للبترول وتنتفخ بالهواء القلاع المرقعة وتعالج بحذق فإذا بالأذن يشجيها صوت تلاطم الماء على جانبي الفلوكة. إن شكلها مخلد على صفحة النيل، تنساب أمام المبنى الحديث لمستشفى قصر العيني إلى كوبري الجامعة، وفي أيام الأعياد والعطلات تنبعث غلالة من الماء أعلى من الفنادق من نافورة الأسمنت وسط النهر أقامها "مصنع كروب لإقامة الكباري".

ويختلف نهر النيل عن نهر عربي كبير هو الآخر، نهر دجلة، واسمه في اليونانية تيجريس بمعنى النمر، فدجلة نهر مفترس عنيف يطغى على الأراضي في أسوأ موعد، أي في فصل الربيع حين لا حاجة بعد لفيضانه، أما نهر النيل فهو أكثر أنهار العالم نفعا -نافع للري والنقل على سواء،، فإن تياره المتدافع دوما نحو الشمال يحمل السفن إلى البحر الأبيض المتوسط، ورياحه الغالبة عليه تهب من ناحية هذا البحر في الشمال فهي تسهل على السفن رحلة العودة دون حاجة إلى عون آخر، وأهم من هذا كله فهو يفيض عندما تشتد الحاجة إلى مياهه أي عندما يبدأ لهيب الصيف في تقدير الحقول.

ويحب أهل القاهرة النيل لأنه عنصر الوداعة والرقة في بيئتهم الصحراوية، وأفضل المساكن ما كان مطلا عليه، وبعد أن احترق فندق شبرد في مكانه القديم بجوار الأزبكية، أقيم له مبنى حديث يطل إلى الغرب على النيل هو وفندق سميرأميس وفندق هيلتون. وينشق النيل إلى فرعين إذا التقى بالجزيرة الوسطى، أما فرعه الغربي الضيق فتصطف فيه بيوت من الخشب، هي العوامات، قميئة وإن لم تكن عليها مسحة رومانتيكية، وأكبر عيب فيها أنها عرضة لهجوم البعوض.

ويتم خنوع النيل للقياد عند القناطر الخيرية شمال القاهرة. إنها سد عريض يحتجز الماء لأشهر أربعة عطشى. وهذه القناطر ترمز لتوسط موقع القاهرة عبر التاريخ فهي مقامة عند رأس الدلتا فملكت السيطرة على مصر السفلى والعليا، ومن ملك مفتاح الماء في بلد صحراوي ملك البلد كله. ويرجع الفضل في اكتساب القاهرة لأهميتها إلى أنها واقعة حيث يتفرغ المجرى الموحد للنيل إلى عدة رياحات تنتشر شمالا كالمروحة لتروي أرضا هي مضرب المثل في الخصب. والقاهرة ليست مدينة كبيرة فحسب، بل إنها عاصمة كبيرة أيضا في يدها مقاليد أمة بلا منازع، ولكن أهلها خليط كن أجناس عديدة...

الفصل الثالث

القاهرة.. أم الألوان العديدة

ظلت القاهرة منذ مولدها مدينة(*) متعددة الألوان، حتى في القرون التي كانت فيها "دار السلام" مفصولة عن "دار الحرب"-أي البلاد النصرانية. لم تنقطع أجناس عديدة عن الاندلاق على مصر، من بينها شتات الصليبيين (سنة ١١٦٣). وهذه هي الحال لم تتبدل لمدينة لا تكف عن التبدل. طرق أبوابها الرقيق الأبيض من القوقاز، الذين صاروا فيما بعد حكام البلاد تحت اسم المماليك، والرقيق الأسود من السودان (وما كان أكثر ثوراتهم على الجلابة تجار الرقيق، وكان هؤلاء في وجلهم يجعلون بيوتهم أشبه شيء بالحصون ذات الأبواب المنيعة). وإلى جانب أولئك جميعا تجار من جاوة والصين وعلماء وفقهاء من تونس ومراكش، وأكثر من هؤلاء عددا وتدفقا حشود الفلاحين المصريين من الدلتا وجنبات الوادي تجري في عروقهم آثار دماء

(*) كلمة مدينة من الكلمات التي حار اللغويون في معرفة مصدر اشتقاقها ويقول الأستاذ الدكتور محمود حجازي في كتابه "اللغة العربية عبر القرون" إن بعض اللغويين يرى أنها من مادة مدن ويرى البعض الآخر أنها الميم ليست أصلا وأن الأصل هو دين أو دان والواقع أن البحث المقارن يخرج هذه الفروض إلى مرحلة الإثبات العملي فاللغات السامية تعرف الدين بمعنى القانون والديان في العربية والعبرية والآرامية هو القاضي و"بيت الدين" في العبرية هي محكمة كما تعرف العربية "الدائن" و"المدين" لمصطلحين قانونيين فالمادة كلها تعني أساسا القانون وما يتعلق به = من ضوابط والتزامات . أما الصيغة ذات الميم فظهرت في الآرامية بمعنى وحدة قضائية ، فالمدينة هي المركز الذي التفت حوله القرى المجاورة وتولت جميعاً وحدة قضائية . وعندما انتقلت الكلمة إلى العربية وأطلقها الرسول على يثرب كان هذا فيما يبدو أول استخدام للكلمة في العربية

فرعونية يضاف إليهم طوائف من أهل ليبيا والنوبة واليونان والصومال والحبشة. وهكذا استقر من قديم طابع القاهرة المميز لها -طابع تعداد الألوان كما كان يبدو في معاهدها العلمية وفي خانتها التي تستقبل التجار من كل الأنحاء (ويحق لنا أن نعتمد على صيغة التعميم-وان كانت جديرة بالملاحظة- التي أوردتها ناشرة كتاب "دليل المسافر" سنة ١٨٩٦ عن دار موارى للنشر في وصف أهل القاهرة إذ جاء فيه أن البلد القاهرة أسرع وأذكى من أبناء عمومته القادمين من الريف فهو بصفة عامة يتميز بخصائص بادية عليه كالسحنة السمراء الضاربة. للصفرة والفم الواسع والشفتين الغليظتين كاملتي الخلقة والأنف البدين العريض والساقين الضخمتين كما تلحظ العين أنه صلب متين البنيان)..

وحين فتح نابليون أبواب مصر للأوروبيين أصبح تناقض ألوان القاهرة أشد إثارة للانتباه والعجب فقد انضم الغرب العصري إلى الشرق التليدى، وإن كانت الإضافة الجديدة لا تمثل أفضل الغربيين أو من ذوي الاستقامة والأمانة منهم، فقد توافدت على مصر في القرن التاسع عشر موجات من المهاجرين الهاربين من الفقر في بلاد جنوب أوروبا، وأصبح عدد هؤلاء الأوروبيين المستوطنين بمصر يعد بمئات الألوف، وانضم إليهم جواب الأرض في الليفانتيين نسبهم المصريون المضيافون إلى الشام وهي كلمة عربية تطلق على دمشق وتمتد حتى تشمل سوريا ولبنان. وازدهرت أحوال هؤلاء الأجانب في مصر -اللهم من حيث الصحة كأن الطبيعة تغدق عليهم بيد وتعاقبهم بيد، وإن سحنتهم لا تسلم من أن يغشاها شحوب رمادي أقل رواء من سمرة من يقيمون بين ظهرانيهم، ولكن رصيدهم في البنوك كان يتمتع دائما بأطيب صحة..

وليس اسم العاصمة في اللغة الدارجة هو القاهرة، بل مصر، وهو بالعربية يطلق على القطر كله. ومنذ ثورة ١٩٥٢ أصبح التمصير -عن خطة أو عفوا- هو السياسة المتبعة، فانحسرت موجات الأجانب الوافدين، أزاحتها قوانين جديدة وإجراءات المصادرة والتأميم وتغير المناخ السياسي، وما جذب أيضا هؤلاء الأجانب إلى العودة إلى مواطنهم الأصلية هو ما أصبح يعمها من رخاء. وأمست القاهرة أقل وضاحة وأناقة. وكان الشعب في أواخر عهد فاروق قد سقط في وهدة فقر زاد من وطأته أن لا نجاة منه، وحريق القاهرة في ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ (وقد قامت محطة بنزين بين شارعي عدلي وثروت مكان نادي "التيرف" الانجليزي) ولم يكن احتجاجا

على الفقر فحسب بل كان احتجاجا أيضا على الترف الباذخ وسط هذا الفقر، ففي تلك الأيام الكئيبة كان شارع فؤاد الأول وشارع سليمان باشا (٢٦ يوليو وطلعت حرب الآن) ترتادهما أميرات جميلات لشراء كل ما يروق لهن من المتاجر الفاخرة، وكانت بعض المطاعم تقدم القواقع وأنواع الجبن الأجنبي ترد لها بالطائرة من باريس، بينما عاش أفراد الشعب على دخل لا يزيد عن قروش قليلة. ولم يعد في القاهرة الجديدة قمم للأناقة، فالقصد هو تحقيق الاستواء، ولا قمم تشمخ فيها الأناقة ولا وهاد يعشعش فيه الفقر..

وإذا كان هدف الحكومة هو الوصول إلى مجتمع متجانس فإن العين لا تخطئ أن تلحظ تباين الأنماط بين أهل القاهرة، فالمدينة في ذاتها -بتعدد أحيائها وأحوالها- تعكس اختلاف الأجناس والألوان والعادات التي يتألف منها المجتمع القاهري.

الفصل الرابع

القاهرة.. منازل الأموات

بالقاهرة ثلاث صحف يومية -الأهرام(*) والأخبار والجمهورية- تتنافس فيما بينها ولكنها لا تتشاجر ورسامو الكاريكاتور فيها إذا تمثلوا القاهري القح جعلوه عادة رجلا نحيلا قصيرا مخلوع العذار، ذرب اللسان، قد يلبس نظارة، ويخب في جلباب فضفاض من قماش قطني مخطط وينتعل خفا من الجلد، وعلى رأسه عمامة مشوشة -أو طاقية قطنية بيضاء، فالطربوش الأحمر- وكان قد استحدثه الأتراك اقتباسا من شمال إفريقية -قد اختفى باعتباره رمزا للتخلف، فلا يتشبث به الآن السياح الأجانب وخدم المطاعم من أهل النوبة، ولم يرج عند القاهرة لحسن الحظ هذا الزى الذي انتقل إليه الأتراك فيما بعد "البيريه" التي فرضها أتاتورك على شعبه، وهي غطاء من القماش للرأس ينتهي برفرف أمامي، وتختص به الطبقة العاملة في أوروبا، لم تأخذ بها القاهرة تقليدا للأتراك، فأغلب رجال العاصمة، وكل نسائها بصفة عامة يسيرون برؤوس عارية.

والصفة التي تطلق على القاهري كما يتخيله رسامو الكاريكاتور كما تطلق على الشوارع الخلفية هي صفة "البلدي" وهي في اللغة نسبة إلى "بلد" وكلمة بلدي تصف طريقة الحياة التقليدية كما تصف الأحياء التي تعيش فيها هذه التقاليد.

(*) جريدة الأهرام هي أقدم الجرائد وقد أسسها الأخوان تقلا وقد هاجرا من لبنان في سنة ١٨٧٥ . وقد صدر قانون في سنة ١٩٦٠ ألغى الملكية الخاصة للصحف

والمصري بجلابيته المخططة وصوته الأجش واهتياجه السريع وفضفضته في التعبير عن نفسه بالصوت والإشارة، قد يبدو في نظر السائح الأجنبي الهياب شخصا متنافرا مع عاصمة تتراكم عليها المدنية الحديثة، بل قد يبدو شخصا يثير التوجس، أما الذين يكلفون أنفسهم عناء مقابلته "وهو سهل المنال في دكانه الصغير أو في مقهاه المألوفة" يجدون ابن البلد هذا -ملح الأرض- شخصا يتصف بالتواضع والصراحة وحب الفكاهة والمساواة بين الناس، فإن كان شيخا فتوقع عنده ما شئت من مراسم حفاوة رب البيت الكريم بضيوفه. إن أساس نمط معيشتهم قد رسخ في أقدم أحياء القاهرة حيث تراكم الزمن طبقة، وحيث تقوم دور متداعية فوق خرائب قصور الخلفاء أو فوق أكوام النفايات.. والكتاب الذين تحدثوا منذ قرن مضى عن القاهرة وأشدهم دقة هو إدوارد لين صاحب الأثر المعروف "العادات والتقاليد عند المصريين المحدثين" وصفوها بأنها مدينة رحيبة تزيد سعتها على عدد سكانها حتى لتبدو كأنها غير مأهولة، ففي سنة ١٨٣٦ لم يكن قد حدث بعد، ما يترتب على نمو السكان من اختزال إلى أصغر فأصغر للبيوت العربية الفسيحة بأفنيتها الداخلية الرطيبة، مما أدى إلى تزاحم المساكن واختفاء العناية بها. وحين نشر لين بول وصفه للقاهرة بعد سبعين سنة من التاريخ السابق كان لا يزال في الاستطاعة التحدث بإفاضة عن الأحياء القديمة على النحو التالي:

"بعد زحام الطرقات وضجتها ستجد انتعاشك في هذه الرقعة الفسيحة الهادئة داخل الدور، هنا تحس أن المعمار المصري قد وفق أبدع توفيق في الوفاء باحتياجات العيش تحت سماء الشرق، فإنه جعل الشوارع ضيقة يسقط عليها ظل المشربيات البارزة لأن الشمس تصب شواظها، فلو كانت الشوارع فسيحة كما هو الحال في مدن أوروبا لأصبحت لا تطاق. وإن جعل الشوارع ضيقة فقد حرص على أن يجعل المساكن فسيحة مع إحاطتها بأفنية خلاء مزروعة بساتين وحدائق، فحين لا هواء تصير حرارة الحجرات في الصيف غير محتملة، وفن المعمار المصري كان يقتضيه أن يبني لك بيتا لا تطل منه على جارك من خلال نوافذه ولا يطل هو عليك من خلال نوافذك، فكان الأسلوب البديهي لتحقيق هذا الهدف هو بناء الحجرات حول فناء داخلي عالي الأسوار. وستر النوافذ بمشربيات كأنها الدانتلا تسمح بتسلل ضوء خافت ومرور هواء كان مما يتيح لمن يطل من هذه الحجرات أن يرى الشارع دون أن يتأتى للمار الغريب أن يتبينه. وهذه المشربيات -أو قل الستائر الخشبية- وكذلك هذه الأفنية المعزولة كانت لازمة لنظام حياة يقضي بحجاب النساء".

وما بقي الآن من بيوت من هذا القبيل يعد من معروضات المتاحف -مثال ذلك بيتان بجوار مسجد ابن طولون، تولى ضابط بريطاني الاحتفاظ بهما بطابع القرن السابع عشر وخلع اسمه على ما يعرف اليوم ب "متحف جاير أندرسون" وفي القاهرة القديمة بيتان بديعان من الطراز المملوكي: بيت جمال الدين الذهبي وبيت الشيخ السحيمى، بقيا محتفظين بطراز لم يعد يمثل القاهرة الحديثة -ذلك أن حجاب النساء قد سقط لزومه في حياة المصريين اليوم. ويرجع بعض الفضل في هذا التحول إلى نزعة التجديد عند المفكرين من أمثال الشيخ محمد عبده شيخ الجامع الأزهر الذي توفي في السنة السابقة لنشر الكتاب الذي نقلت عنه. وكان من نتيجة شيوع هذه الأفكار، مع تفسير جديد للدين الإسلامي يتلاءم مع القرن العشرين أن أصبح آلاف من النساء يعملن مع الرجال جنبا إلى جنب لا في دور العلم فحسب بل في المصانع والمكاتب الحكومية، وهناك في الأزهر اليوم فتيات يدرسن علوم الشريعة..

وساير نزعة التجديد في الفكر الإسلامي نمو مطرد خلال قرن لنظام علماني للتعليم، في قمته جامعتان في القاهرة، تقوم بجانبهما أيضا جامعة أمريكية. وأغلب الشباب من الكتاب والمفكرين لهم نزعة علمانية، وبعضهم يولي ظهره للدين..

دع عنك هذا التحول الفكري، فإن تزاحم البشر في القاهرة إفريقية الفصل بين الجنسين مستحيلا، ولم يعرف الريف قط نظام الحجاب حيث تعيش النساء وهن سافرات يساعدن رجالهن في العمل بالحقول. إن نظام الحجاب كان شرفا مقصورا على المدن. وكل مبالغة تقتصر عن وصف ازدحام الأجساد في القاهرة -أكبر مدن إفريقية- لا لأن أهلها يتكاثر نسلهم جيلا بعد جيل فحسب، بل لأنها كالعهد بكل العواصم بمثابة الإسفنجة، تمتص مئات الألوف من المهاجرين من أبناء الريف، وترتب على ذلك أن كل قطار قادم من الشمال أو الجنوب يصب في القاهرة مزيدا من السكان. كان عدد هؤلاء السكان سنة ١٨٨٢ هو ٨٣٨. ٣٧٤ ، وتضاعف هذا العدد عشر مرات في سنة ١٩٦٤ وسيتجاوز أربعة ملايين حين تمضي سنة على نشر هذا الكتاب.

والقاهرة القديمة.. أي هذه الرقعة التي لا يتجاوزها صوت المؤذن في مساجد حي القلعة، لم تعد المركز الذي يتكشف عنده هذا النمط التقليدي لحياة أولاد البلد، فهذه شبرا كانت قرية أنشأ فيها محمد علي قصرا صيفيا له، وكانت الكتب المعدة

للسائحين إلى سنة ١٨٩٦ توصيهم بشبرا إذا أرادوا الركوب في الأمسيات للتنزه في الريف ومشاهدة قنواته وجاموسه. أما اليوم فإذا أردت أن تشاهد الريف فعليك أن تمضي إلى جهة أخرى: غربا إلى الأهرامات أو جنوبا إلى حلوان، لأن شبرا ذاتها أصبحت أشد زحاما من إيست هام وهارلم أشد أحياء لندن ونيويورك زحاما، واحتل نظام المعيشة البلدية مئات من شوارعها. وإذا كانت شبرا لم تعد تصلح لمن يريد التنزه في الريف فإنها مع ذلك تستحق الزيارة بسبب أن فيها كنيسة "سانت تريزا" وهي إحدى المزارات العجيبة الموجودة في العالم، أخذ في إنشائها في العقد الثاني من هذا القرن طائفة من الكارميليت تجمع بين الإنجليز والأيرلنديين، وبدأ محراب صغير فيها يجتذب إليه جموعا غفيرة من المسلمين والمسيحيين على حد سواء، والكنيسة القائمة اليوم هي مزار للأمهات المصريات، يدفعن فيه بأبنائهن أو بقطع من ثيابهن للمس صندوق زجاجي يضم رسما للقديسة وجدران مدخل الكنيسة منقوش عليها نذور بأكثر من اثنى عشر لغة من بينها نذر لرئيس وزراء سابق في مصر.

و"العباسية" حتى كذلك من الأحياء السكنية التي اندلقت فيها المدينة القديمة خارج حدودها وفاضت على الأراضي البراح الممتدة إلى هليوبوليس والمطار فقصر حبيب سكاكيني، وهو أعجوبة بطرازه القوطي وبأعمدته على هيئة فتيات من ذوات الأجسام البضة وبأطره الجد رانية المنقوش عليها زخارف نباتية حول الحرفين الأولين لاسم صاحبه الليفانتي ولقبه، كان في الأصل معدا لإقامة خلوية، فأصبح الآن تلتقي عنده دروب عديدة لحي سكني مزدحم إلى درجة الاختناق. وحتى في هليوبوليس "مصر الجديدة" تمتلئ الشوارع الخلفية بمنازل على غرار منازل الأحياء السكنية في القاهرة القديمة، ولكنها تستوعب أجهزة الترانزستور والغسالات الكهربائية كما يستوعب عش الطائر نتفا منزوعة من نفاية خيوط الغزل أو صفيح السباك، وتلعلع أجهزة الراديو من المقاهي، ويسير الناس في الشوارع مرتدين البيجامات وتعرقل ٤٠ ألف سيارة حركة المرور، ويندفع رجال الشرطة بزيهم الأسود شتاء الأبيض صيفا في نقاش بصوت عال مع المارة حتى ليظن العابر خالي البال أن ثورة توشك أن تندلع وهذا هو طبع الشرق ثم يتحول هذا كله إلى تكشير بالأنياب سرعان ما ينقلب إلى تبادل السلامات. وهنا طرح كبير للأطفال كطرح الكتاكيت ولكنهم كتاكيت غير متشابهة عند خروجهم من معمل التفريخ فهم أخلاط متباينة ولهم ضجة عالية، إنهم

لا يزالون في رهبة من أبائهم، كثير منهم يميل إلى الشر وبعضهم إلى الانحراف، ولهؤلاء ملاجئ إصلاحية يدخلونها إن أمكن القبض عليهم فهم خفاف في الجري والقفز، ومع ذلك فلا تدل الإحصاءات على تفشي هذا النوع من الإجرام المعدوم الهدف الذي هو في بعض الأحيان طابع المجتمعات الأكثر رخاء.

والأحياء البلدية في القاهرة جديرة بالزيارة في جولة استكشافية فهي بقايا لا تزال حية لمسرح ألف ليلة وليلة، وإذا كان كثير من حوادث هذا العمل القصصي العظيم عند العرب قد وقع في بغداد فإن المجتمع الموصوف فيه هو مجتمع القاهرة، ولا يزال كثير من سمات الحياة كما تبدو في ألف ليلة وليلة باقية إلى اليوم. وخير الطرق لاستكشاف الأحياء البلدية هو أن تسعى إليها مشيا على القدمين، وستكون آمنا مطمئنا، ولكنك قد تتعرض لاشتباكات جدلية إذا أبرزت آلة تصوير لا ترحم، فإنها قد تثير الغضب والاحتجاج من جراء الشعور بأنك تخليت عن دور الضيف - وللضيف مكانته المقدسة في الشرق- لتقوم بدور "البصاص" الذي يتصيد عجائب القارات كما يتصيد هاوي الفراشات أنواعها العجيبة وإن هذه الأمثلة التي تجمعها لعجائب السلوك الإنساني ستعرضها على أصدقائك في بيتك حين تعود إليه في جو من التندر والسخرية، والسبب أن هؤلاء الناس أصحاب القلوب الطيبة قد بدأوا يعيشون في مأساة انتباههم إلى أنهم مختلفون، وأن اعتماد كيانهم على الدروب الضيقة والمعيشة والعمل نشرا تحت قبة السماء قد يعد من الوصمات. والطبقة الوسطى في المجتمع هي التي غرزت في أذهانهم هذا الخاطر أكثر مما غرزه الأجانب. وفي الحق أن خير نتاج مصر هو الذي ينبع من هذه الدروب الضيقة، فهنا حيوية هيهات أن يكون لها قرين، وحماس وتطلع، جديران بالإعجاب، لمباهج الحياة الصغيرة المهمة تنال عفوا.

ولكن ليس كل أفراد الطبقة الوسطى ينظرون إلى هذا الطراز من المعيشة نظرة ازدراء، فالروائي نجيب محفوظ قد سجل بعناية قصوى مشاهدها في روايته "بين القصرين" وهي ثلاثية تتتبع الأجيال وتعكس حياة أولاد البلد في أدق تفاصيلها، وكذلك يوسف شاهين وهو من ألمع المخرجين في ميدان السينما بمصر قد صنع فيلما عن شاب مصاب بانفصام الشخصية يرتدي الجلابية وجعل حوادث الفيلم تدور في محطة باب الحديد بضجتها العالية وحواشيها الرثة الحظ.

الفصل الخامس

القاهرة.. الطابع الإفرنجي

وأغلب أولاد البلد في القاهرة يقبلون على شراء البنطلون إذا قدروا على دفع ثمنه، يقتبسونه ويقتبسون معه نمط الحياة الإفرنجية. وكلمة "إفرنجي هي المقابلة لكلمة "بلدي". إنها النطق العربي لكلمة "فرانك" وهي اسم قبيلة جرمانية استوطنت فرنسا في القرن الخامس وأطلق في الشرق على الأوروبيين عامة، فهي تعني الآن في موضوعنا كل ما هو ليس بمصري، أو كل ما هو أجنبي. وكان التفرنج يعني في البدء -علاوة على لبس البنطلون- الرقص الأوروبي على أنغام الموسيقا وحفلات الكوكتيل واللوحات الزيتية في حجر الاستقبال بدلا من لافتات الخط العربي وأثاث من طراز لويس الخامس عشر -يصنعه للزبون المتفرنج نجار بلدي!- ويعني فوق ذلك أيضا إيداع النقود في بنك لا في شكمجية كان هذا في البدء، أما الآن فقد أصبحت جميع هذه الأشياء من صميم الحياة في القاهرة بحيث انقطع الإحساس بأنها من اختصاص الإفرنج.

والمتفرنج القاهري (هو مسلم في تسع حالات من حالات عشر) ينبغي التفريق بينه وبين "الخواجة"، وهذا لقب صيغ في الأصل ليطلق على كل من هو مسيحي أجنبي وإن شمل أحيانا القبطي: المصري المسيحي أيضا. ويعيش المتفرنج القاهري والخواجة جنبا إلى جنب في وئام أشد من وئام المسيحيين والمسلمين في قبرص، إلى أن لكل منهما حسابا مختلفا للآخر. قد يكون نمط حياتهما متشابها، ولكن "الخواجة" الذي كان من قبل يتميز بسلطان اكتسبه إبان هيمنة الغرب المسيحي على

أقدار العرب، قد خف الآن في الميزان. وكلمة "الخواجة" ذاتها -وهي من ألقاب التكريم في لبنان- أصبحت في مصر تبطن معنى الازدراء لذلك يفضل الأجنبي أن يكون النداء عليه "يا سيد" بدلا من "يا خواجة" فإن كلمة سيد في مصر الآن تعمل عمل كلمة "مستر في إنجلترا.

والطبقة الوسطى هي العنصر الحاكم على القاهرة الحديثة، فمن صفوفها خرج أولئك الذين يخططون العاصمة كما هي اليوم، ويرسمون لها أذواقها، ويقودون ثورتها. وقد انبثقت هذه الطبقة الوسطى حديثا من الجماهير البلدية، وكان القرن التاسع عشر يكاد يوي من قبل أن يصبح للعامة من المصريين حق امتلاك الأرض، وكان كسر احتكار الأسرة الحاكمة للملكية العقارية هو منشأ الطبقة البورجوازية، والفروق بين الطبقات المائعة، والطبقة الوسطى آخذة في النمو، وقد نحد س حجمها من نتائج إحصاءين، فبينما لا يزيد عدد أصحاب السيارات في القاهرة عن ٧٠ ألفا نجد ما لا يقل عن ٦٠٠ ألف من سكانها بين موظف حكومي أو مستخدم، وفئة المستخدمين تشمل أناسا قد وضعوا قدما -على الأقل- على أول سلم الطبقة الوسطى.

وتعيش الطبقة الوسطى موزعة في كل الأحياء السكنية، ففي شوارع يغلب عليها الطابع البلدي بضجته ودكاكينه ولعب أطفاله بالكرة في الطرقات، تتعالى عمارات تسكنها أسر متفرنجة، وإن بقي لها أقارب في القرية أو في المدينة. ولكن بعض المناطق يكاد يغلب عليها الطابع الإفرنجي. والزمالك هي أكثرها عمرانا وأشدها افتقارا إلى السمة الذاتية وهي تمتد مسافة ميل ونص شمال "الجزيرة"، هنا تتبادل أشجار البوجانفيليا والزاكرندا والبوانسيتيا تزينين شوارع تقوم على جانبيها دور السفارات وأعيان القاهرة. أما الطرف الجنوبي من "الجزيرة" فيعيش تحت ما وقفا على الموظفين الإنجليز ورجال الأعمال الأجانب، واليوم ورثه المصريون عنهم..

أما الروضة -الجزيرة الجنوبية- فهي أقل طولا من "الجزيرة" بمقدار ميل ونصف وأقل منها تعاليا، فإن عماراتها المزدحمة بالسكان لا يسعى إليها إلا لابسو البنطلون، أما لابسو الجلاليب فهم الخدم والباعة، على حين أن الشاطئ الغربي للروضة تتسم مساكنه بالترف.

وفي أحد القصور المطلة على النهر كان يقيم باشا مصري نتزوج من سيدة يونانية، وبلغ من غرامها بالطب الفرعوني القديم أن خصصت له ثلاثة معامل. وفي

إحدى المناسبات عارضها صديق ثري قتله السأم يريد أن يملأ فراغه بشيء ما ولو كان شرا فتحداها أن تظهر قدرتها، فحبست عنكبوتا ساما في آنية زجاجية (برطمان) مع تمثال من الطين على هيئة هذا المستهزئ الساخر وأودعته بعضا من شعره وأظفاره. ولم يحدث شيء ثم اضطرت الساحرة إلى السفر إلى سويسرا لبعض الأمور العاجلة، وبينما هي هناك وصلتها برقية تفيد أن صديقها هذا في المستشفى على وشك الموت -فيما يبدو- بالسرطان فاتصلت من زيوريخ بالتلفون لتقوم بعملية إنقاذ، وأمرت خدمها بأن يقتحموا المعمل، فوجدوا أن العنكبوت الذي كان وشك الموت جوعا داخل البرطمان قد فرض طريقا عميقا داخل التمثال، ربما سعيا وراء قطع الأظفار، فأمرت الساحرة خدمها النوبيين بأن يغسلوا التمثال في ماء النيل تحت ضوء القمر (وكان القمر لحسن الحظ مكتملا) فما إن تمت العملية حتى شفي صديقها الضحية في الحال.

والطبقة الوسطى غالبة أيضا على الشاطئ الغربي للنيل عند محافظة الجيزة، تحيط هناك بإحدى مؤسساتها -وهي الجامعة- وكذلك غالبة هي على مصر الجديدة والمعادي، وكانت الضاحية الأخيرة خالصة لسكني الأوروبيين، أما اليوم فإن العنصر المصري شائع فيها.

وعسير عليك اليوم أن تجد من يتحمس للمصريين من الطبقة الوسطى، هم اليوم على غير ما هم عليه، وأنت إذا أعربت عن ازدرائك بقيم الطبقة الوسطى ستجد كل فرد من أفرادها في القاهرة يوافقك على رأيك، هذا مع الاعتراف بأن التحمس لجماعة دون تفرقة بين أفرادها لا يخلو على أية حال من تحيز متفضل، فالذي يقول إنه متحمس لفصيلة من الكلاب لا يختلف عنه من يقول إنه متحمس للزنوج. والطبقة الوسطى في القاهرة -كالشأن بها في كل بلد- هي منبت أفراد للأمة وهذا هو مسوّغ وجودها. وأشخاص رواية "الرجل الذي فقد ظله" -تجري حوادثها في حي قاهري- يصفهم مؤلفها فتحي غانم تعميما بأنهم قساة وأنهم جديرون بالسخرية والرثاء معا، ولكنهم شهود على القرن العشرين في كل مكان، وليهنأ القارئ الأجنبي إذا لم يجد نفسه صورة أخرى من هذا الانتهازي المجرد من البطولة الذي جعله المؤلف بطل روايته. وهذه الرواية -ومعها كتابات أخرى عديدة- تعبر عن عقائد طبقة خلعت عنها قيم الماضي وأزياءه. وقد وصف فتحي غانم حادثا بقي في ذاكرته منذ طفولته كحادث مهم، حين تحدث عن أبيه القروي الذي كان أول

فرد في الأسرة خلع الجلابية، فإن أباه هذا ذهب إلى طبيب ليمحو بالكي آثار وشم على يده، وكان الصبي يعجب بهذا الوشم وأحزنه أن تختفي عن يد أبيه رسم الثعابين والتروس، فلما كبر الصبي أدرك أن هذا الكي في غير ضرورة هو رمز مأسوي لطبقة نبذت معايير قيم تقليدية من أجل قيم جديدة تكاد تكون غير مقنعة لهم بعد..

وسواء كان هذا التحول صوابا أو غير صواب فإن تطلعات الطبقة الوسطى - على كل حال- هي التي تحدد للعاصمة رسمها، فذوق هذه الطبقة هو الفيصل: أي المباني يهدم وأيها يبقى وأيها يقام. وتدشين انتصار الطبقة الوسطى على نظام الحكم السابق تمثل في إنشاء كورنيش النيل بامتداد ٢٥ كيلو مترا فقد ظل هذا المشروع موضع بحث طال سنين عديدة، ثم إذا به يتم تنفيذه خلال أسابيع قليلة، والآن يتمتع المصريون من جميع الطبقات بهذا الكورنيش الذي يعد حقا رئة جديدة للعاصمة..

وتهيم الطبقة الوسطى بما هو ضخم، حديث، مريح، فها هو مبنى التليفزيون بطوابقه الثلاثين له إشعاع صورة الحياة عند الطبقة الوسطى لمن يملكون أجهزة التليفزيون أو لمن يتحلقون حول شاشته المقامة في الميادين العامة. وقد قدمت قنواته خلال سنة ١٩٦٤ برامج ترفيهية وتثقيفية استغرقت ١٣٧ ساعة و١٦ دقيقة.

وكذلك برج القاهرة، إنه خارج من أحضان الطبقة الوسطى، وقد وصفته إحدى النشرات الحكومية بأنه من روائع المعمار الإسلامي الحديث، ولكنه يشبه سلة مهملات الورق، ضخمة متعالية، وفي سطحه مطعم دوار يتحرك على عجلاته الصغيرة تحرك قطار بطيء جدا بحيث إن الذين يتناولون فيه -وسط جو من المرح- وجبة كاملة (حساء-لحم-فاكهة) إذا رفعوا أبصارهم عن طبق "السكالوب على طريقة فيينا "رأوا أن المنظر قد تبدل كل التبدل، أصبحت الأهرام على يسارهم حيث كانت القلعة من قبل تلوح لهم كأنها لا تتحرك.

الفصل السادس

القاهرة.. والأرستقراطية

لم يكن للطبقة الوسطى قبل أعوام أية سطوة ولم يحظوا بالسكني في المباني والشقق الفخمة إلا قليلا، فقد كانت موجودة وقتذاك أرستقراطية يحسب لها كل حسب فبيدها زمام الأمور. ومنذ سنة ١٩٥٢ سافر إلى الخارج معظم الأرستقراطيين والإقطاعيين، وفضل من كان منهم من أصل تركي، دون أن يكون منتميا إلى العائلة العثمانية المخلوعة، الإقامة في تركيا- واختار آخرون سويسرا أو فرنسا أو- كما فعل الملك السابق فاروق- مونت كارلو. وفضل البعض البقاء بعيدا عن الأضواء ما استطاعوا بمعاش ضئيل (وذلك في حالة الأمراء والأميرات السابقين) أو بما بقى لديهم بعد التأميم والمصادرة. واستمر البعض في شغل القصور الجميلة التي تحوي أثاثاتهم يستعملونها كيف شاءوا بدخلهم الضئيل. وأبدعت سيدة مجتمع سابقة قطعا فنية رائعة من تجميع قطع الزجاج الفاطمي أو من قطع أشغال العظم القبطية التي يمكن اقتناؤها من محال بيع القطع الأثرية والأنتيكات، وشتان بين ما تبدعه وبين ما يصنع بالجملة لأفواج السياح، ويتحول نتاج ما تصنعه إلى إحدى الجمعيات الخيرية القبطية. ويعزف أمير سابق أنغام شوبان في الاستقبالات المحدودة من أجل البر أيضا. ولا يتصور كثير من هؤلاء الأرستقراطيين الذين بقوا كيف يتركون مصر، فهم مخلصون لها بحماسة يعسر دائما إدراكها ممن احتلوا أماكنهم..

ويسكن جاردن سيتي أثرياء الأقباط، وكثير منهم اقتنى الكتب الإنجليزية وتخلق بالمعيشة الإنجليزية، ويأخذك العجب وقليل من الحزن أيضا وأنت تزورهم في

غرف مكاتبهم.. التي رصت جدرانها بالكتب عندما يسألونك بذهن شارد عن اسم كان ملء الأفواه في عالم الأدب أو عن "زيد" أو "عمرو" الذي كان يشغل مركز نائب دولة أو سفير ثم بات في هامش الحياة.

وقد نبذ الأقباط الأسماء الإنجليزية واختفت أسماء مثل وليم وجفرى وسيسل، وحل محلها أسماء أكثر فطنة مثل "توفيق" أو حتى "جمال" وهي مدلولات غير محددة تنفع المسلمين والأقباط على السواء.

الفصل السابع

القاهرة.. الطابع النوبي

والنوبيون طبقة أخرى ليس لها طابع غالب على المجتمع في القاهرة مع أن آثار بلادهم هي محل اهتمام السياح، ووسامة ملامحهم تستأثر بشغف الفنانين والمصورين الفوتوغرافيين. وليس هناك شارع معين تقصده فتجد عنده النوبيين، بل هم يشاركون المهاجرين من القرى سكنى حي قد لا تلحظ عين القاطن العابر في فندق هيلتون أوشبرد، وأنا نفسي لم أنتبه لوجود هذا الحي العجيب إلا حين كنت أقيم في بنسيون في الطابق الثالث عشر من عمارة تكاد تكون من ناطحات السحاب، فقد استيقظت ذات صباح على صياح ديكه وثغاء غنم، فلما خرجت إلى الشرفة وأطللت منها رأيت قرية متناثرة على الأسطح المستوية للمباني المجاورة، إذ هي تزيد في ارتفاعها عن ستة طوابق، وتتكاثر فيها. تقليدا للفن الحديث زخارف من المعدن والجص أي أن المنطقة تقابل شارع أكسفورد في لندن. وجدت من تحتي بط يبطبط، وأغناما تلوك حزما من البرسيم، ونساء في ملابس سود تمد أيديهن إلى أقفاص الدواجن لتخرج بفطور عيالهن (والبيض في القاهرة بيض بداري الدجاج فيلزمك أربع منها لكي تصنع لك عجة). في كل قرية من هذه القرى المتناثرة على الأسطح يعيش البوابون -هم في مساكن القاهرة من علاماتها المتميزة- فإنك لابد واجد عند مدخل كل عمارة بوابا- واحدا على الأقل- جالسا على دكة، يلاحق بنظره الداخلين والخارجين، وفي أغلب الأحيان يكون مع رفاق له، والنوبيون يحبون المؤانسة. إنهم يأتون من هذا الوادي الضيق ما بين أسوان وشمال السودان، وقراهم تمتد طولا، النيل

هو شارعهم الرئيسي، بيوتهم فسيحة، نظيفة، طليقة الهواء، جدرانها مزينة برسوم من صنع أيديهم، ما من باب عليه قفل، فليس هناك سرقة، وليس هناك زنا، ويعترف القاهريون بأمانة النوبيين ويرونها سبب استخدامهم بوابين. ومع كل هذا فقد احتجت الحكومة السودانية لدى منتجي السينما المصريين لأنهم يظهرون الشخصيات ذوي السحنة السمراء في دور الخدم دائما ولم يظهروهم سادة مطلقا.

وتتصف القاهرة بقدر عظيم من التسامح. قد يحدث اشتباك بين خواجة ومسلم وبين مصري حنطي اللون وآخر من أبناء السود، ولكن لا يكون هذا الاشتباك بسبب نفور جنس من جنس. وبعض دروب القاهرة تشبه حي هارلم في نيويورك، ولكن بدون حزازاته، وإن كان السودانيون يتجمعون في مقاه خاصة بهم فليس مرجع ذلك أنهم معزولون عن المجتمع، بل إلى اختيارهم هم أنفسهم لهذه المقاهي، شأن المقهى التي تجدها في كل مدينة وقرية كبيرة في وادي النيل فيها أبناء القاهرة المغتربون عنها.

الفصل الرابع

القاهرة.. الطابع البلدي

وفي أطراف العاصمة قطاع تقطنه الأغلبية العظمى. يقطنه الأموات. إنها مدينة أو قل ضاحية إن شئت، تمتد وتستدير مع مدينة الأحياء ، مابين شوارعها المزدحمة وتلال المقطم، تلك الخراطة المقسمة دروبها تقسيما هندسيا تتبين لك إذا وقفت عند مسجد الجيوش فوق القلعة من أعلى الحصن الذي قد قذف منه نابليون بقنابله العاصمة الثائرة. إنها ليست أرض الجبانة وإن كانت القبور جزء منها ، بل هي مدينة مسطحة وحشية اللون، لها أيضا شوارعها ، وعلى بيوتها أرقام كأنما تنتظر مع الصباح موزع البريد ، ولكنه إذا دق الباب لن يفتح له أحد ، فإذا دفعه دخل إلى مأوى كأنه مسخ للمعتاد من مساكن الأحياء. حجرتان متجاورتان على أرضها بساط من التراب. وفي كل منهما نصب مستطيل من حجر أوجص، وتحت أرض إحدى الحجرتين يرقد الذكور من أموات الأسرة ، عزلهم الموت عن الإناث المدفونات في قبور الحجرة الأخرى. ويسجي الميت على لوح من الحجر ، مكفنا ولكن بلا ناووس. ومتاح لك زيارة مقابر المماليك، حكام مصر خلال ستة قرون، وزيارة المسجد الذي يضم رفات سلالة محمد على ، ويرجع عهده إلى القرن التاسع عشر وله زخارف كثيرة.

وأعرف فتى مصريا ولد ونشأ في أمريكا ، ذهب أخيرا إلى مقبرة أسرته ليحضر دفن عمته ، وكان لم يألف بعد عادات بلده ، فركبته الحيرة حين اقترب منه أحد أقربائه وقال له في اهتمام خاشع إنه أتى إليه من بعد أن ألقى السلام على أخته. لم يفهم

قوله أول الأمر ثم أسعفته ذاكرته وأدرك أن محدثه يعني أختا له ماتت في طفولتها قبل مولده، إنها كانت راقدة في قبر الأسرة طوال السنين وتزار هي أيضا.

أما الذين ينكرون دوام الصلة بين أهل القاهرة اليوم وأهل منف من قبل أربعة آلاف سنة، فإن في مدينة الأموات التي وصفتها ما يكفي للرد عليهم. كان الرومان يحرقون موتاهم، والإغريق يدفنونهم خارج المدن على قارعة الطريق، أما الدين الإسلامي فمن سنته دفن الميت في قبر لأحد لبساطته حتى إنك تستطيع بيدك أن تسويه بالأرض (قبر الملك عبد العزيز آل سعود مع أنه توفي منذ عشر سنوات فحسب لم يعد الآن في الرياض من يذكر أين هو ولا بقي من يزوره).

وتنفرد القاهرة دون بقية عواصم الإسلام بنظامها هذا للمدافن وما يستتبعه من واجبات، ففي الأيام المشهورة على مدار السنة- كأيام العيد الصغير الذي ينتهي إليه شهر الصيام، وأيام العيد الكبير الذي يحتفل عنده بوصول الحج إلى مكة- تحتشد الناس وتتوافد على مدينة الأموات، يحمل كل منهم سلة بها طعام كأنه خارج إلى نزهة، متلهفا على زيارة أفراد أسرته الذين صاروا عاجزين عن لبس الأثواب الجديدة في العيد أوالتمتع بالفسحة وشم الهواء. وكان هذا هو الشأن أيام الفراعنة في مواسمهم أيضا، وإن اختفت اثنتان من عاداتهم- الآن لا تحنيط للموتى، والدفن في الضفة الشرقية من النيل حيث تشرق الشمس، أما عند الفراعنة- اللهم إلا أيام هرطقة أخناتون- فقد كان الميت يدفن- بعد تحنيطه بنفقة باهظة أو متواضعة وفقا لدخل الأسرة- في الضفة الغربية من النيل، حيث مملكة أوزيريس.

وكان لصوص المقابر من المشكلات الدائمة للفراعنة، وما الأهرامات والقبور الغائرة في الصخر إلا محاولات لتضليل هؤلاء اللصوص. وأهل القاهرة يعانون منهم اليوم أيضا، شأنهم شأن أجدادهم. وهناك قوة من الحرس تجوب المقابر، من أجل أفرادها ومن أجل أسرهم أيضا، قامت متاجر صغيرة تبيع الشاي والأدوات المدرسية. وبعض الغرف المبنية فوق المقابر قد اتخذها الناس مساكن لهم، ولكن على الرغم من قوة الحرس وبالرغم من الغول الذي تقول الأساطير إنه يسكن في ظلام المقابر، فإن كثيرا من الأسر تعمل المقص في أكفان موتاهم حتى لا تبقى لها قيمة تغري بالسرقة.

الفصل التاسع

القاهرة.. ظلال من مقدونيا

تتميز القاهرة عن بقية مدن إفريقية (وعن سائر مدن آسيا بالنظرة ذاتها) بأنها ظلت منذ مطالع القرن التاسع عشر عاصمة قطر، أيا كان هو، فإنه متقارب من الدولة الحديثة. وليس من قبيل الإطراء خلعنا هذا الوصف عليها، فالدولة الحديثة تجمع بين ما هو طيب وما هو غير طيب. يكفي القاهرة أنها تضم ٣٠ محكمة بها ٦٥٠ قاضيا ومستشارا و ٣ سجون بها ٨ آلاف من النزلاء و ٦٥ مستشفى بها١٣١ ٣٢٠ سريرا وما يزيد عن ١١٠٠ من شرطة المرور، ليقال إن هذا كله لا يعكس أنها عاصمة فحسب، بل عاصمة تأخذ بالنظم الحديثة، وهي أيضا فريدة في أنها تمثل مجتمعا شرقيا في صراع دائم مثمر مع الغرب، لا تنازعها في ذلك مدينة استانبول (وهي مدينة لابد من أن من يقال عنها إنها غربية فهي مقامة في أوربا) فإن القسطنطينية كما عرفها القرن التاسع عشر قد شهدت هذا الصراع ذاته ولكنه انتهى بالانسحاب، فقد نقل كمال أتاتورك عاصمته الجديدة إلى بلد صغير في قلب الأناضول، ولا أحد في مصر (اللهم إلا في شهر أغسطس حين تصبح الإسكندرية بمثابة العاصمة الثانية) يتبادر إلى ذهنه التخلي عن القاهرة.

وعلى مدى قرن ونصف -مابين نابليون وجمال عبد الناصر- تولت حكم مصر سلالة أجنبية واحدة بلغ من تتابع توارثها أن أصبح يطلق عليها -تفخيما لها- كالشأن مع بيوت الملك العريقة وفي التاريخ للعهد الفرعوني -اسم "الأسرة الحاكمة" ومنشئ خطوط هذه السلالة رجل مسلم من مدينة قولة في مقدونيا بشمال اليونان،

وكذلك إلى مقدونيا ينتسب منشئ الإسكندرية العاصمة المتلألئة لمصر البطالسة، وبعد أن انحدر حالها وانكمشت وأصبحت قرية صيادين لا يزيد عدد سكانها عن خمسة آلاف أعاد إليها محمد علي -المنتسب إلى مقدونيا أيضا- ازدهارها، ولكنه اتخذ من القاهرة عاصمة لملكه. وكان حين مجيئه إلى مصر من أتباع السلطان العثماني، وبتكليف منه لصد زحف نابليون بإعجابه الشديد، وتعاون أسلوب الثورة الفرنسية وأسلوب حكام الأقاليم المتخلفة من تحطيم المماليك في مجزرة وحشية انقسم امتدادها إلى مرحلتين، الأولى تولاها نابليون بالقرب من قرية إمبابة (التي اندمجت في القاهرة الكبرى اليوم وبها مسرح البالون) فقد أحاطت جنوده من حملة البنادق بالأمراء الشجعان الذين حكموا مصر لستة قرون، وفر من نجا من المعركة إلى صعيد مصر والسودان، انتظارا -هكذا ظنوا- لعودتهم إلى مناصبهم وأملاكهم يوم يرحل نابليون إلى باريس. ولكن محمد علي -وهو في بعض الاعتبار آخر المماليك وأنجحهم- دعا بقيتهم إلى حفل في القلعة وفتك بهم هناك. ونستطيع اليوم أن نشهد موقع هذه المذبحة، إنه الممر الضيق المؤدي من القلعة إلى باب العزب. وكانت نجاة واحد منهم واسمه حسن بك من الموضوعات التي هام بها المصورون في القرن التاسع عشر فرسموه، وفقا لأسطورة شائعة -وهو يقفز بجواده من شرفة القلعة هاويا إلى الأرض. ولكن الحقيقة هي على خلاف الأسطورة، وإن كان قد نجا فبفضل مرض أقعده عن حضور الحفل. واستمر القتل أيضا في المماليك الذين كانوا متفرقين في أرجاء مصر..فمن هم هؤلاء المماليك؟

إنهم في الأصل رقيق أبيض من شراء حكام مصر ليتولوا حراستهم. وكما حدث في الإمبراطورية الرومانية من تحول قادة الجند عن حراسة الإمبراطور إلى التسلط عليه يخلعونه متى شاءوا ويقيمون من شاءوا بدله، فإن هذا الحرس من المماليك المرتزقة بسط سيطرته على حكام مصر. وقد جاء هؤلاء المماليك من الأطراف الشمالية الشرقية لدار الإسلام ولاسيما من القوقاز وتركستان، وكانوا يتصفون بالهمة والحماسة، وأحيانا بالتقي والورع، وأحيانا بالانتهازية الكلبية، ولكن محال وصفهم بأنهم مصريون. ورأس المماليك يصبح هو السلطان، منصب قد ينقل بالوراثة من أب إلى ابن، ولكن كان من المحبب لهم في المعتاد أن يتبنى السلطان مملوكا أثيرا عنده، وكان هذا المملوك إما يقتل سيده أو يتآمر له ويحل محله حين يقتله مملوك غيره. ويمكن القول بأن نظام المماليك يرجع مبدأه إلى عهد

صلاح الدين وهو كردي من أبناء القرن الثاني عشر، فإنه أقام هو وخلفاؤه نظام حكم أشبه ما يكون بنظام الحكم الإقطاعي في الغرب، ولو أن فرق الجنس بين المماليك ورعاياهم من الفلاحين الصابرين سكان وادي النيل قد جعل هؤلاء المماليك أقل من بارونات القرون الوسطى في فرنسا وإنجلترا اهتماماً بالحقوق الديمقراطية، وإن أخطأنا عمدا في حق التاريخ فأجزنا استخدام وصف الديمقراطية لعصر سابق لعصرها. ولما انهزمت مصر أمام الأتراك العثمانيين سنة ١٥١٧ وشنق طومان بأيدي آخر سلاطينها على باب زويلة قام الظن لبرهة بأن دولة المماليك قد دالت، على يد غزاة لا يقلون عتوا عن التيودور في غزوهم لانجلترا، ولكن أعباء هذه الإمبراطورية التي اتسعت فجأة ثقلت على الأتراك فرأوا من الأصلح أن تكون مصر بقرة يتولى المماليك حلب ضرعها لهم فبقيت هذه الزمرة متربعة على مقعد الحكم إلى نهاية القرن الثامن عشر وإن بقي لموظف تركي سيادة اسمية عليها.

ومن تركة المماليك التي أورثوها للقاهرة شيئان: هذه العيون الزرق والخضر في بعض الوجوه السمر، وهذا الحشد من الصروح الفخمة: مدارس ومستشفيات وفوق هذه وتلك مساجد بقبابها التي تتميز بها مقامة فوق قبورهم، كأنما انتقل إليهم بالعدوى، من روح مصر الفرعونية هذا الحرص المستهام بضريح لائق بالرقدة الأبدية، وهكذا أضفى الرواد على عاصمة دولة انكمش عدد سكانها من ٨ إلى ٢ مليون نسمة، فالقاهرة التي انتقلت من يدهم إلى يد نابليون وإلى يد مريده المقدوني لم تكن إلا نتفه صغيرة من قاهرة اليوم. ويرجع الفضل في اتساع هذه المدينة إلى أسرة محمد علي، وإن تسعة أعشار رقعتها لم تعرف العمار إلا بعد انقضاء عهد المماليك.

ولم يشعر محمد علي في قرارة نفسه أنه مصري قط، ولو أن ابنه إبراهيم -هذا الجندي الصارم- كان يحس أنه قريب إلى أبناء العرب سمر الوجوه شأنه في ذلك شأن لورنس إذا راعينا واجب تبديل زمن بزمن. وكان محمد علي يتكلم التركية لا العربية، ويعد نفسه عثمانيا لا مصريا، ولا حتى من مقدونيا. وكان له -كما للملك عبد العزيز آل سعود- وفرة من الأولاد، ولكنه كان في الوقت نفسه من المعجبين بالمدنية الغربية الحديثة وأراد أن يقتبس كل تطبيقاتها فأنشأ الآلات البخارية وبنى الفنارات. والطابع الذي خلفه على مدينة القاهرة يستمد إشعاعه من القلعة، إذ شيد فيها قصره -قصر الجوهرة- بالقرب من باب العزب حيث تدوي صرخات أشباح المماليك الذين ذاقوا الموت ذبحا. وبجانب من القصر الجوهرة مسجده المقام على

قبره، وهذا المسجد لا يعد في نظر عشاق العمارة الإسلامية في القاهرة من أفضل نماذجها، شأن دار الأوبرا في باريس بيم مثيلاتها. وعلى الرغم من أنه من طراز مستلهم من تركيا لا من مصر فإنه -في عاصمة مصر- يطغى على افقها الشرقي.

وأوصل محمد علي الإسكندرية بالقاهرة بحفرة ترعة المحمودية، وبنى -كالشأن الخيرية عند عنق الدلتا ولكنها- كالشأن في أغلب منجزاته -كانت مهتزة الدعائم، فلم يتم لها رسوخ إلا في التسعينات من القرن الماضي. وفي قصر الجوهرة لوحة تصور مجدد مصر وهو قاعد، كما نجده قاعدا في الصورة القلمية التي رسمها له روبرت كير زون. قال:

"وجدنا الباشا حين لقيته شيخا عفيا متين البنيان، عريض الكتفين، عريض صفحة الوجه، واسع انفتاح المنخرين، تضفي عليه نظرته الحادة الوثابة، هيئة أسد أغبر هرم. تحدثنا ثلاثة أرباع الساعة على مدى إمكان مد السكة الحديدية بطول برزخ السويس. وكان هذا المشروع أكبر هم يشغل باله حينئذ. ولكن الحادثة التي سجلت هذا اللقاء بقوة في ذاكرتي والتي دهشت لها لأنها تمثل عادات تختلف عن عاداتنا كل الاختلاف لم تكن في ذاتها إلا حادثة هينة، فقد رأيت الباشا يطلب منديله فأخذ يبحث عنه فيما حوله، ثم ينقب في جيوبه، فلم يجده. وكان أثناء في بحثه لا يكف عن التعبير عن دهشته وحيرته بهتافات مختلفة، استجاب لها آخر الأمر خادم سعى إليه من أقصى الحجرة وقال له "ابحث عنه في جيبك الآخر" فأجابه الباشا" فعلت فلم أجد فيه منديلي "رد عليه الخادم" إذن عد إلى البحث عنه في جيبك الأول "فلما أجابه الباشا" ليس عندي منديل " أو بكلام من هذا القبيل، كان الرد السريع الذي أتى إليه من الخادم" بل عندك منديلك "وتكرر القول والرد" ليس عندي منديل"-"بل عندك منديلك" وانتهى الأمر بأن تقدم هذا الخادم إلى الباشا وأخذ ينقب في جيبي سترته دون أن يجد المنديل، فأخذت يده تدور حول خصر الباشا يتحسس المنديل فلعله قد طواه طرف الشال الذي يتلفع به ولكن بلا جدوى، حينئذ أمسك الخادم بسيده وأماله إلى اليمين فوق الأريكة ونظر تحته ليرى ما إذا كان قد قعد على منديله، ثم عدله وأماله من جديد إلى اليسار، وظل الباشا طوال هذه المناورة العجيبة على أتم ما يقدر عليه من هدوء واستسلام، ثم دس الخادم ساعده إلى الكوع في أحد جيوب سرواله الكبير المنتفخ وأخرج علبة نشوق ومسبحة وأشياء أخرى صفها على الأريكة، ولكنه لم يجد المنديل، فانتقل ساعده إلى الجيب الآخر

ومده إلى عمق مهول حتى أخرج من قاع الجيب المنديل المفقود، وفي حركة ملؤها التوقير والتجلة دفعه بقوة إلى يد الباشا ثم تراجع إلى الطرف القصي من الحجرة حيث كان"

هذا وصف جدير بالاستعادة ونحن نستعرض ما كان لهذا الرجل العظيم من أثر ووقع على العاصمة التي اغتصبها، وكذلك ونحن نستمع إلى الهجوم عليه من المنادين بالوطنية الحديثة. قد يكون محمد علي نهازا للفرص، يمضي إلى غاياته بلا رحمة، وقد تكون إصلاحاته سابقة لأوانها، ضحضاحة لأنها انبعثت من دوافع باطلة -إذ كان يطمع أن يجعل من مصر قاعدة لإمبراطورية يقيمها لشخص- ولكن رجلا له مثل هذا المسلك السمح وهذا التحرر من مراسم المنصب الرفيع خليق بأن يستجيب المصريون لسحره، ومثل هذه الخلال لا تزال إلى اليوم في جميع البلاد العربية هي التي تمهد لحكامها طريق النجاح.

لم يرث أحد من أبنائه عبقريته وانتماءه للشرق وقد وجد اسمه أسوأ تخليد له في القاهرة "فإن إسماعيل هو الذي أطلق اسم محمد علي على شارع شقه فيها بتأثير من ذوقه الفرنسي، فجاء أشد شوارع العاصمة دمامة واجتراء فإنه هتك أحشاء حي من أجمل أحياء القاهرة، وهدم قصورا وأزال حدائق وقوض جانبا من مسجد عتيق لا لشيء إلا لكي يسلم الشارع تمام امتداده على خط مستقيم، وهذا حرص سخيف عديم الذوق "هكذا قال ستانلي لين بول. ولكن ما يشفع لهذه الفعلة النكراء من إسماعيل هذه البواكي التي تجعله شبيها بشارع ريفولي في باريس. ولما جاء عصر فاروق حفيد إسماعيل أصبح الطابع الشرقي لشارع محمد علي ينم على التخلف وانقطع انتظام البواكي، فاختفى أكثرها وأصبح جريحا متناثرا ، وأصبح -باسمه الجديد شارع القلعة- من أقبح الشوارع في مدينة جميلة.

وحين ضاق أهل القاهرة ذرعا لخضوعهم لحكم سلالة محمد علي كان مطلب ثأرهم عند قصورهم، فقصر عابدين -وهو من طراز قصر بكنجهام وصورة مصغرة منه- يطل على ميدان كبير. هنا كان لتوفيق بن إسماعيل نقاش مثير مع الضابط عرابي، مثيل عبد الناصر في الثمانينيات من القرن الماضي. أصبح الآن يسمى بميدان الجمهورية وينقلب إلى سرادق مكبب مهول تنصت فيه الجماهير الغفيرة إلى الخطب احتفالا بعيد الثورة في شهر يوليو من كل عام، أما القصر ذاته فقسم منه تشغله إحدى الوزارات "وزارة الإصلاح الزراعي وقسم آخر يحتله ناد للشباب، وقسم أفراد

ليكون متحفا ولقد بيع أغلب أثاثه الفاخر، وما بقي منه ينم عن ذوق إسماعيل الذي كانت مخصصاته من خزانة الدولة تفوق مخصصات الملكة فيكتوريا، ولا تزال معلقة على الجدران لوحات زيتية تمثل زوجات إسماعيل مرتديات ملابس عقيلات طبقة السادة في أكسفورد، وبقيت الأدوية في الحمام الملكي كما تركها فاروق عند تنازله عن العرش، وبقي الميزان كذلك، ذكرى حزينة لبدن يود أن يذوى كما ذوت سمعة صاحبه. أما القصر الذي احتفل فيه إسماعيل بالإمبراطورة الفرنسية يوجنى فكان لمدة طويلة مسكنا في المدينة لأسرة مسيحية من الصعيد، هي أسرة لطف الله، وبقي القصر بقدر ما كما كان، وإن أقيمت على أرضه شاليهات مترفة.

وقصر الأمير محمد علي (ولي العهد إلى أن رزق بولد من زوجته الثانية ناريمان صادق قبل خلعه بقليل) قائم إلى اليوم بجزيرة الروضة، من وراء أسواره العريضة دروب يحفها نبات الصبار أو تظللها أشجار البانيان، لا ينساها من يجوس خلالها، تصلح أن تكون مسرحا لفيلم سيريالي إن صنعت الأفلام في مصر. وبالقصر مجموعة ضخمة من صور فوتوغرافية لملوك الدول ورؤسائها عليها توقيع أصحابها، وفقا للمراسم. وينقلب طابع القصر المستلهم من ذوق دمشق إلى طابع عهد إدوارد في إنجلترا إذا انتقلنا إلى الحمام ورأينا من خزفه زخارف على هيئة أزهار. أقام الأمير على أرض قصره متحفه وهو خير مكان تستعرض فيه السجاد الشرقي، ولوحات الملوك ورؤساء الدول، والمصاحف المزخرفة، وأشياء أخرى ثمينة من جمع أمير شرقي مطلق السلطان.

وهذه الفقرة التي كتبها لها صدقها، ولكن السرعة التي يتصف بها تغيير الأحوال في الشرق الجديد ما لبثت أن جعلت كلامي محمولا على الماضي، فقد علقت على باب القصر لافتة بأنوار النيون تعلن أنه هو أيضا أصبح فندقا باسم "عمر الخيام المنيل" وقطعت الشاليهات امتداد حدائقه ولم يعد في الإمكان صنع فيلم سيريالي كالذي تحدثت عنه فإن نبات الصبار قد أذبله غشيان السياح لدروبه وان كنا -أنا وأنت- لم نهضم بعد نصيبنا من متعته. وهكذا انقشع السحر على رنين العملة الصعبة.

ولن تجد في القاهرة من يغضب لتراث القرن التاسع عشر وهو يتعرض للزراية به والترحيب بتقويضه، وهذا حال يدعو للأسف ولو أنه مفهوم. فإذا كان هذا التراث يعد في نظر الإنجليز في بلادهم منحدرا عن عصر الملكة فيكتوريا عصر القوة

السيادة، فإنه في نظر المصريين ينحدر عن عصر إسماعيل وتوفيق عصر الضعف والمهانة. أما إبراهيم فلأنه قائد عظيم فهو لا يزال يحتفظ بنصيب من الإجلال كما يحتفظ بتمثال له أمام دار الأوبرا نراه فيه فارسا مهيبا ممتطيا جواده، على حين أن سليمان باشا، هذا الفرنسي الذي اعتنق الإسلام وأصبح معروفا -إلى جانب ما يعرف عنه- بأنه أيضا جد نازلي أم فاروق فقد استمر تمثاله -الذي يمثله بسراويله الواسعة وبطربوشه- قائما حتى سنة ١٩٤٦ ثم أزيل من الميدان القريب من محل جروبي حيث كان يعطي بعض ظهره للسيدات البدينات المندفعات صوب الشيكولاته، ومن حل محله؟ تمثال باهت الشبه بطلعت حرب مؤسس بنك مصر.

والذين يهيم ذوقهم بعطر الماضي الحديث هيهات أن يجدوا لهم غنيمة تفوق غنيمة زيارتهم لمتحف السكك الحديدية بالقاهرة، مادام باقيا. إنه منزو بالقرب من محطة باب الحديد ويضم ثروة كبيرة من النماذج والصور الفوتوغرافية، تشهد باستباق مصر لدخول عصر السكك الحديدية في وقت مبكر. وقد وصفت لك من سابق محمد علي وهو يباحث كير زون في مد خط حديدي، وقد تم مد خط بين القاهرة والإسكندرية سنة ١٨٥٦ ويحتفظ المتحف في أحد مخازنه الجانبية بالقطار المسمى "بالكشك" الذي كان مخصصا لسعيد باشا والي مصر الذي أعطى الإذن بشق قناة السويس، إنه بين القطارات عديل سيارة رولزرويس بين السيارات وهو من إنتاج مصانع ستيفن سون..

أول المصانع في إنشاء السكك الحديدية إطلاقا -وتم تسليمه سنة ١٨٢٦ وقد طلي القطار من الخارج بألوان زاهية جعلته براقا كقطع الكريستال البوهيمي إرضاء للذوق الشرقي، وفرش داخله بالطنافس فامتزجت مع الآلات الملمعة امتزاجا غريبا. وكان سعيد باشا -الذي كان بين أفراد أسرته الذين لا تنقصهم البدانة أكثرهم امتلاء- مشهورا بأنه كان يقود هذه القاطرة بنفسه في زياراته لإقطاعات أقاربه وأصدقائه.

أما عمران القاهرة فالفضل الأكبر فيه راجع إلى إسماعيل. تدين له إحياؤها السكنية الجديدة بنصيبها من رواد المعمار الإيطالي، وأحيانا بنصيبها من رشاقته أيضا. من أجل إسماعيل جرى إطلاق اسمه على هذا الميدان الواسع الذي كان فيما مضى تشينه الثكنات البريطانية فتحول إلى منظر فخم بإقامة فندق هيلتون مكانها. ولقد أقيم في سرة هذا الميدان قاعدة تمثال حمراء اللون استمرت خاوية ولن يعلو

قمتها تمثال إسماعيل وبذلته الرسمية، وتبدل اسم الميدان من ميدان الإسماعيلية إلى ميدان التحرير.

أما دار الأوبرا فهي إلى اليوم درة منجزات إسماعيل، بنيت على عجل من الخشب والجص لتلحق افتتاح قناة السويس، ولكن تعجل الحاكم الشرقي لم يجد مجاراة له عند المحن المكلف بإعداد أوبرا عايدة لليلة الافتتاح، فلم يستطع فردي إتمامها، ومثلت بدلها أوبرا "ريجوليتو" وقد حضرت يوم ٢٨ ابريل سنة ١٨٦٤ أداء بديعا لأوبرا "لاترافياتا" مترجمة إلى العربية فقدم إبراهيم رفعت نصا بلغ قمته في قابليته للغناء، ولكن السيدات اللاتي استضافتهن فيوليتا في صالونها جئن من عصر أشد ديمقراطية من عصر إسماعيل الذي لا يزال الحرف اللاتيني الأول من اسمه محور الزخارف المعدنية المذهبة على مداخل دار الأوبرا.

الفصل العاشر

القاهرة.. طابع الأجانب

يجيء الأجانب في الصف الثاني بعد أسرة محمد علي، فإنهم، وربما بتوالس معها -حققوا للقاهرة، ولأنفسهم- مغانم كثيرة- فالبارون هرتز يدين له هواة الفن بالشكر والتقدير لأنه كان بمثابة القلب المحرك للجنة حفظ الآثار الإسلامية، فلولاه - وهذا مثل من عديد- لبلي الساتر الخشبي ذو الزخارف الدقيقة في مسجد المار داني وتحول إلى تراب.

وهذا بارون آخر -البارون أمبان- كان الهمة الدافعة لعمران هليوبوليس الضاحية الشمالية للعاصمة، أنشئت سنة ١٩٠٦ ويبلغ تعداد سكانها اليوم ١٢٢ ألفا. وقد أنفق البارون أمبان أرباحه من شركة الترام في بناء قصر له على الطراز الهندي، يعد من أغرب الأبنية في القاهرة، إنه من الخارج صورة مطابقة تمام التطابق لأحد معابد مدورا في الهند ببرجه الشاهق المخروطي وتماثيله على هيئة الفيلة، وزخارفه على شكل رؤوس مفزعة لمخلوقات خليط من حيوان وبشر. أما من الداخل فقد زود البارون قصره بمقاعد وأرائك من ذوق الطبقة الوسطى في بلجيكا، واتخذ من الشباك ستائر نوافذه. وإمبان مثال للمغامرين الأجانب الذين وجدوا في النظام الاقتصادي لمصر قبل الثورة مرتعا خصبا لهم، لم يكن بطبيعة الحال محبوبا لأن تشبهه بالأمراء لم يأتلف مع سماحة الشرق. وكان يهيم بالمعارك، ولكنه حظي بصداقة الملك فؤاد، فترجم هذا العطف إلى امتيازات كبيرة غنمها.

وهناك ملك آخر شهد كيف يخفق البارون أمبان أحيانا قليلة، فقد سبق له في

الريفيرا في فرنسا حوالي سنة ١٩٢٠ أن قدمه بعض معارفه إلى الملك ألفونسو الثالث عشر وهو لا يزال على عرش إسبانيا، ثم قام الملك بعد ذلك بزيارة مصر زيارة خاصة متخذا له اسما مستعارا، فدعاه البارون إلى العشاء في قصره الهندي، وقبل الملك الدعوة، ولما اجتاز صفوف الرؤوس المفزعة وجد بقية الضيوف جماعة من البارونات القدامى، كلهم من محترفي القمار في النوادي الليلية، أو من أرتستات الكباريهات، وجلس الملك إلى المائدة، وكان جلوسه هو كل شيء فعله، لم يأكل، لم يشرب، لم يتكلم وكفى أن يدوم هذا الصمت خمس دقائق حتى يصبح جيرانه كأنهم خشب مسندة، ولما انتهى العشاء قام الملك وهو لم يتحول عن صمته وانصرف.

ومنذ الثورة لم يفتح القصر الهندي الذي صار مثل فيل أسمر في حديقة خشنة ماتت أشجارها التي لم تجد من يدفع ثمن مياه ريها. وقد أبدى أحد الأمراء السعوديين مرة استعداده لتحويله إلى استراحة لزملائه السعوديين عند حضورهم إلى مصر للتمتع بجوها، ولكن المشروع أهمل عندما تبينت السلطات البلدية حقيقة ما أعدت له هذه الاستراحة.

ولكن ما بقي واضحا من نفوذ الأجانب هي هذه المطاعم والفنادق ذات الأسماء الإنجليزية ففي مطعم "سان جيمس"- الذي اشتهر وانفرد بتقديم جمبري البحر الأحمر-يعرض عليك صاحبه بزهو قصاصة ترجع بك إلى الماضي، إنها من جريدة "الإجيبشيان جازيت" في عام ١٨٩٥ تقول:

"سيطبق المحل في مكانه الجديد إلى الموسم القادم نظام المعيشة الفردية حيث يجد السادة المقيمون حجرة للنوم مع الإفطار تماما كما هو متبع في حي وست أند بلندن في المناطق المجاورة للنوادي الراقية الخاصة"

واختفت التقاليد الأنجلوسكسونية تماما من فندق شبرد. اللهم إلا اسمه، ويرجع عهدها إلى العصر الفيكتوري حين أنشأ هذا الفندق رجل مغامر جسور وجعله استراحة للذين ينزلون في الإسكندرية من سفنهم ويغادرونها بالقطار ليلحقوا ببواخرهم في السويس. لقد كان فندق شبرد القديم معقلا من معاقل رجال الإمبراطورية العظام، وكانت الجرائد تهتم بنقل كل ما يدور في أرجائه حول أثاثه الخيزراني ونخيلا ته المغروزة في قصا ريها. فمثلا اهتمت الجرائد بحفلة رأس السنة الجديدة لعام ١٩١٥ حيث دار الرقص حثيثا في القاعة المصرية بالأزياء الغربية المبتدعة، وفي نصف الليل.

"أعاد صوت تردد في القاعة بعض الضيوف المجتمعين إلى الواقع حيث شاهدوا نموذجا كاملا لطائرة ترتفع بلطف من القاعة إلى أعلى نقطة في صالة الرقص، وقد جلس فيها طفل ظريف بأجنحة شفافة وتكلل وجهه ابتسامة وجهها إلى الحاضرين جميعا. وأطلقت حمامات تحمل أشرطة عليها التمنيات الطيبة، كما قام الجميع برمي كرات ثلجية كتذكارات لطيفة، ولكنها لم تكن باللينة في حالة الضابط الصغير الذي طارت كرته داخل القاعة وأصابت وجه الجنرال ماكلارن. وكان وقتا عصيبا سرعان ما خففه الجنرال بكلمة منه رقيقة. وأخيرا انتهى كل شيء ونامت القاهرة ملؤها الحيرة والتعب.. والسعادة"

أما عن أثر فرنسا فإن لغتها كانت -حتى في ظل الحماية البريطانية- أكثر تداولا من اللغة الإنجليزية، ولا تزال الليسيه الفرنسية قائمة ولا يزال الجزويت يحتفظون بمعاهدهم، والمجمع العلمي المصري هو الوريث غير المباشر للمجمع الذي أنشأه نابليون. وهناك جامعة أمريكية، ولا تنفك تتسع، ويمثل طلبتها بعض مسرحيات تنسي وليامز.

وتتناثر في القاهرة بنسيونات متواضعة للأجانب الوافدين من وسط أوروبا، كصديقي يانكو، وهو أرستقراطي من سلوفاكيا يهوى الرسم، ويقطن في شقة تطل على وزارة الأوقاف. إنه يضع على عينيه نظارة سوداء، ويعيش مع كتبه ومجموعته من نبات الصبار، ويشرب الزبيب في شرفة يرقب منها المارة، ولا يخرج من داره إلا ليشتري حاجته من سوق الخضار المسقوف في باب اللوق أو مزيدا من الزبيب من بقال يوناني قريب من داره، ولا يفوته حضور افتتاح معارض الرسم العديدة التي أصبحت من سمات حياة القاهرة اليوم. أما رسومه هو فبالألوان المائية على ورق غير مستو، وله أعمال عديدة تدور حول موضوع واحد هو "الأحداث المشردون" وقد علقت بصالة الخريف. ولما سألته عن الطابع المصري في الرسم أجابني "ماذا تقول؟ ليس عندنا إلا جزر قليلة أصيلة ضائعة وسط بحر من التقليد الفاسد كما كان الشأن في الإسكندرية في أواخر حكم الإغريق، ولا غرابة، كان الأمير يوسف كمال حين أنشأ مدرسة للفنون الجميلة سنة ١٩٠٨ قد اختار معظم مدرسيها من الفرنسيين، ولكن العجيب أن المصريين بعد انقطاع عن الفنون التشكيلية على مدى ١٤ قرنا - باستثناء العهد الفاطمي- قد أخذوا الآن يعودون إليه بحماسة كبيرة. وخديجة رياض -حفيدة أحمد شوقي الشاعر- تعرض لوحات تجريدية ولكني أفضل شغلها في الحي

إنه بديع، ورؤوف عبد المجيد يحيل أكواخ الشواطئ إلى تكوينات تجريدية فكأننا بإزاء عالم صامت منفرد لا تطيب له النفس وأفضل المصورين عندي هي عفت ناجي، وقد اشتهر أخوها محمد برسم هيلاسلاسى في الحبشة قبل الحرب الإيطالية، وتستلهم عفت رموز السحر -هذا العنصر الدائم في حياة مصر- السحر الأصيل الشراني، لا السحر المدعي طلبا للتصاحب ولبريق التظاهر، ثم تحيلها إلى رسوم، وهي لا تعني بمقاييس الذوق أو الموضة الشائعة، وهما مطبان خطران على الفنان، ورموز عفت السحرية هي من تشكيلات خشبية بارزة، فلها أبعاد ثلاثة، وتصبغها بدهان لامع كالفلوريسنت"

أعود إلى صديقي يانكو، إنه تحول الآن إلى التصوير الفوتوغرافي، وقد ظل مرة ساهرا طوال الليل ليلتقط هذه اللحظة الخاطفة التي يزهر فيها نبات صبار مرة كل ثلاث سنوات.. ويقول يانكو بشيء من المرارة "الزهور؟ نعم! القاهرة ملأى بمتاجر الزهور، ولكنها عند المصريين أشياء توضع في سلة مفضضة، محزومة بشريط طوله عشرة أمتار، وترسل لحفل زفاف" !

وأقول من جديد إن هذا الذي أكتبه قد عفا عليه الزمن، فقد تلقيت أخيرا من يانكو بطاقة بريد مصورة وعلى طابعها خاتم ميونخ.

الفصل الحادي عشر

القاهرة.. الطابع الإسلامي

العمارة الإسلامية التي ابتدعتها القاهرة لا تجعلها فحسب مجرد مدينة جليلة المكانة في هذا الفن، بل تجعلها مدينة فريدة ليس لها مثيل. وقد رأيت أن أنسب هذه العمارة إلى الإسلام، لأن نسبتها إلى السراقنة -كما فعل القرن التاسع العشر دائما- منافية للدقة والصواب، ولأنه كما يقول أئمة المتخصصين اليوم، لا يجوز إطلاقا نسبتها إلى العرب، وها هو ذا الأستاذ كرسويل يستخدم عبارة الفن المسلم، وقد يغتفر لي أن ألجأ إلى الصفة المشتقة من كلمة "الإسلام" لأنها الاسم الذي يطلق على هذا الدين وحضارته، فهي أفضل عندي من كلمة "المسلم" التي هي صفة من يعتنق الإسلام، فمن محامد النسبة التي استخدمها أنها تنطبق على أبنية أنشأها معماريون مسيحيون.

وحتى القول بأن هناك مدنا أخرى تزهو كل منها بمثال للعمارة الإسلامية أوفى صدقا وكمالا هو قول موضع نظر. حقا إن كل من زار بورصة (في الأناضول) ورأى عمائرها لا يسعه الإعجاب بألوانها الزاهية، وإن عشاق نقاء الشكل في الفن المعماري يهللون لقصر الصيد المسمى بالأخيضر (في لواء كربلاء) أو لبقيا قصور سامرا (سر من رأى) التي بنيت في القرن التاسع، وإن ضريح تاج محل الذي تنعكس واجهته على الماء له من المعجبين به قدر ما له من الهائمين بالتقاط صورته، ولكنها جميعا إما أبنية فرادى، وإما -كما هو الحال في بورصة- أبنية من نتاج عصر واحد. أما القاهرة فهي وحدها التي تشهد بتطور متصل قرنا بعد قرن، يتدرج

من السذاجة عبر البساطة إلى تعقيد التركيب، ومن الازدهار العفي إلى الذبول السقيم. وهكذا فإن سجل حضارة بتمامها يتكشف على الحجر والآجر والخشب طوال زمن يزيد عن ثلاثة عشر قرنا هو الآن معروض للناظرين. وقد كانت بغداد خليقة بأن تنافس القاهرة، ولكن بغداد خربها المغول بعد سنوات قليلة من بناء قصر المستنصرية المشهور بانسجامه اللطيف. لذلك إذا أردنا أن نتذوق الفن الإسلامي بغير أن تفسده رتابة التفاصيل كما في قصر الحمراء، وبغير أن يشوهه تعمد مبالغ فيه -كما في عمارة الهند- فينبغي لنا، كما يقول ستانلي لين بول -أن نتأمل مساجد القاهرة وأضرحتها.

وإذا كانت القاهرة بهذا النمو العشوائي لأحيائها السكنية تبدو مختلطة المسالك، فإن ميزتها أنك إذا تأملتها بصبر وجدتها لا تكشف لك عن اختلاطها الذاتي فحسب. بل تكشف أيضا عن اختلاط جانب دخيل وجانب أصيل لحضارة تتمركز في القاهرة، وهي إذ تكشف تفسر. إن مشوارا طويلا في يوم واحد (وإن كان من الأفضل تجزئته على أيام عديدة) هو بمثابة درس لك، فتفهم منه هذه الحضارة المنسوبة إلى الجنوب الشرقي لحوض البحر الأبيض المتوسط، كما تفهم تطورها.

وينبغي له أن يبدأ المشوار من الطرف الجنوبي للقاهرة بنت اليوم. وأفضل وسائل القيام به هو ركوب قطار ضواحي من محطة باب اللوق (وثمن التذكرة في الدرجة الأولى ثلاثة قروش، أي ما يعادل ستة بنسات) ثم تنزل في المحطة الثالثة محطة مار جرجس، فتشرف على مدخل ضيق لكنائس لا تخلو من دمامة. أحن رأسك تحية لها والحظ جدارين مستديرين بقيا من حصون القاهرة الرومانية، واجعل عزمك زيارة هذه القاهرة في غد، ثم امض في طريقك واسلك دربا معتما متربا يحاذي السور الذي يضم الكنائس، فإذا بك تصل إلى أقدم مسجد في القاهرة.

وقد تم فتح مصر سنتي ٦٤٠-٦٤١ م وفاتحها هو عمرو بن العاص، وكان في شبابه من أصحاب الرسول الذي توفي سنة ٦٣٢ وقد جاء عمرو من الأراضي العربية حيث -ونحن ننقل مرة أخرى كلام الأستاذ كرسويل- "لم يكن لأهلها العرب قبل الإسلام -فيما يبدو- إلا فكرة بدائية عن فن العمارة، فلم يكن معبدهم قبل سنة ٦٠٨ يزيد عن أربعة جدران في قامة الرجل تدور حول بئر زمزم، وبعبارة أخرى كانت الأراضي العربية تمثل فراغا معماريا تاما أو يكاد" وعمرو الذي شرب من ماء زمزم كان قائدا عبقريا، سلس الإيمان بدين سلس، فكان في حاجة إلى جامع يؤدي فيه صلاته. لا شك أنه رأى هذه الكنائس التي مررنا بها لتونا على الصورة التي كانت

لها في الأصل، إنها تختلف عن الكنائس الواقعة إلى الشرق من مصر في سوريا وفلسطين فهي بادية التقشف مكنونة، تعكس موقف الكنيسة القبطية من العقيدة بميلها إلى الاقتصار في غموض على الذات.. وقد خصصت سوريا وفلسطين بالذكر لأن المسلمين ظلوا زمنا طويلا يشاركون في كنائسهما، يصلون في جانب، ويصلي المسيحيون في الجانب الآخر.

واليوم في الموقع الذي تدبر فيه عمرو كيف يفي بحاجته، لا نرى إلا سورا عظيما من الآجر المغطى بالجص، وكأنه مهجور، له ثلاثة أبواب، فإذا دخلنا وقع بصرنا على مساحة مكشوفة أرضها من الرمل، هذا البهو في الوسط يسمى بالصحن، إنه مصطلح فني يحسن بنا أن نتذكره، وإلى أمام المدخل من بعيد نرى القبلة ومن حولها الأروقة، وهي غابة من الأعمدة غير المتشابهة تتفتح عن الصحن من خلال عقود تبلغ العشرين.

وهذا الجامع الفسيح العادي البسيط، كان في الأصل معدا في المحل الأول لأغراض عسكرية، ليتاح لرجال الجيش المؤمنين أن يجتمعوا داخل سور ليقيموا صلاتهم في أمن. لم يبق منه اليوم إلا أشباح تتراءى في الجامع الذي نزوره، فلا يكاد يكون قد بقي منه قالب واحد من الآجر أو عمود مستعار من بناء آخر، لأن جامع عمرو كان يوم إنشائه ضئيلا بالقياس إليه اليوم، ضئيلا ليناسب مدينة الخيام (الفسطاط التي استحدثها عمرو خارج بابليون المسيحية. هو اليوم مساحة ضخمة على هيئة مربع، يبلغ طول ضلعه ١٠٠ ياردة، أما زمن عمرو فكانت له أربعة أضلاع غير متساوية (٢٩ في ١٧ ياردة) وكانت أرضه مكشوفة مغطاة بالجص، وعلى قوائم من جذوع النخل سعف من الجريد المغطى بالطين، كما كان حال بيت الرسول في المدينة، أما الجدران فكانت من اللبنات. وبعد ثلاثين سنة تجدد بناؤه. ثم أهمل وتهدم ثم تجدد مرة أخرى إلى زمن محمد علي. وهو اليوم أفضل بداية لجولة في القاهرة الإسلامية.

فإذا خرجنا وتلفتنا نبحث عن سيارة أجرة (وعسير العثور عليها في هذا الحي الفقير) ورضينا بالسير على الأقدام، وجدنا أنفسنا نطأ أرض أول موقع للقاهرة الإسلامية. كانت مدينة من الخيام نصبها البدو.. حقا إنه ليناسبها اليوم ما نراه من منظر أكوام النفايات وصفوف القبور ودكاكين رثة صغيرة تبيع أوان فخارية بدائية.

وكانت حركة العمران في القاهرة الإسلامية تتجه دائما إلى الشمال.

وبعد ٢٠٠ سنة من تأسيس عمرو بن العاص لمدينة الفسطاط وإلى الشمال منها

مسافة ميل واحد، أنشئت المدينة الإسلامية التالية على يد وال للخليفة العباسي. فقد جاء ابن طولون من سامرا (سر من رأي) التي شيدها الخليفة المعتصم، وقد أعياه تتابع الصدام في بغداد بين رعيته من العرب وجنوده المرتزقة من الأتراك، مدينة لم يسبقها في الضخامة والطموح إلا مدينة روما العتيقة، فقد كانت فسيحة الطرقات، تتقاطع متعامدة، ولا يزال تخطيطها الهندسي بينا عند تصويره من الجو، ما أشبهها حينئذ بمدينة برازيليا اليوم. ولأن ابن طولون، وهو نفسه من الأتراك -قد جاء من هذه المدينة الكبيرة. فقد بدت الفسطاط للعين مدينة صغيرة محشورة، وكذلك وجد أتباعه جامع عمرو- على الرغم من أنه كان قد زيدت مساحته -أصغر من أن يفي بحاجتهم لأداء صلاة الجمعة. أين هو من جامع سامرا الذي كان يتسع لستين ألفا يصلون جماعة معا.

وهكذا مضى ابن طولون سنة ٨٧٠ في إقامة مدينة جديدة يكون فيها قصر له وميدان صوالجه (اللعب بالكرة من على ظهور الخيل، أي لعبة البولو الحديثة). خلة واحدة تؤلف بين العرب والأتراك وهي عشق الخيل، ولكن الذي كان يؤلف قبل كل شيء بين ابن طولون ورعيته من المصريين هو الدين الإسلامي الذي يطرح الفوارق القومية التي يتعصب لها العصر الحديث وتلح عليه إلحاحا شديدا. وكان ابن طولون متدينا، تقيا، ورعا. وها نحن نذهب اليوم لزيارة جامعه.

حقا إن وصوله إلينا سليما يعد من الخوارق، هذا المربع المهيب خليق بأن تكون روعتنا له مماثلة لروعتنا لمعبد البارثينون. بل هو عندي يوحي بفيض أكبر من القداسة، إنه أميل في الشبه إلى معبد فرعوني منه إلى معبد إغريقي، فهو يخفي جماله من وراء أسوار لابد لمن يؤمن من المؤمنين من اجتيازها. وهو مقام على تل صغير ليكون بمنجاة من ماء الفيضان، ولكنه لا يطاول الأكروبول في الارتفاع، فأنت تصل إلى مدخله عبر طرقات زاخرة بالضجة والزحام -وقد نظمتها البلدية على نحو يكاد يكون دميما. فإذا جاوزنا المدخل ألفينا أنفسنا وقد شملنا جو يوحي بالسكينة والبساطة وتجانس العناصر، وينكشف الصحن للسماء فتحرقه الشمس وتجلله بالصفار. وفي وسط الصحن فسقية للوضوء تعلوها قبة ترجع إلى سنة ١٢٩٦، وهي أقل قيمة من القبة الأصلية التي كانت مقامة على عشرة أعمدة من المرمر، طلبا للجمال وحده لا للنفع، فنحن نعلم أن ماء الوضوء لجموع المصلين كان مبذولا ميسرا من وراء فالفسقية هي الواحة والعقود هي الغابة التي ترمز لما في النفس من تشابك المنازع المتضاربة، فيطالعها في ظلال الأروقة جو رطيب يشعشع فيه الجذل الروحي

ويخيم فيه السكينة الداعية إلى الاستغراق في التأمل والاستعبار، فالمسلمون الذين أخضعوا صحارى الشرق الأوسط لم يألفوا الغابات إلا قليلا، ورأوا غابات النخيل على شاطئ دجلة وغابات شجر الأرز في جبل لبنان، إلف نادر وقصير الأمد، فهو يتوهج في الذاكرة كما يتوهج القرآن الذي نزل في مكة قنينة الرمال كلما تحدث عن حدائق والجنان، فالسماء والصحراء والماء والغابة، هذه الأشياء الأربعة إنما توحي بشيء خامس ينطوي في وجوده وجود كل الأشياء: الله. فأنت في هذا المبنى لا تستشعر الله في رؤيتك لتمثال -فليس في الجامع طبعا تماثيل- أو لتفاصيل من زخارف، ولو أن الزخارف الجصية حول الشبابيك بديعة الجمال، بل تستشعره في هذا الانسجام الكامل المطلق حيث لا عوائق بارزة وحيث تجد كل حنيه من حنايا الروح رمزها..

وفي المساحة التي أضيفت للجامع وفي حضن أسواره العالية تقوم مئذنة من الحجر الرملي، كأنها مسخ لطراز معماري قديم، فنصفها مربع ونصفها أسطواني. وقد تعددت واختلفت الآراء في تعيين هذا العجيب، فهناك رأي يقول إن ابن طولون كان رجلا منصرفا إلى عمل نافع أو متحفزا له، يكره البطالة والمتبطلين وكان جالسا ذات يوم يتحدث عن جامعه وكيف يريده أن يكون من طراز جديد غير مسبوق وأن تتمثل الجدة في استغنائه عن الأعمدة لأنها تنتهب عادة من الكنائس، فرآه جلساؤه يلهو بورقة في يده، ويلفها في غير مطلب، فلما أحس أنهم ضبطوها وهو يبعث أراد أن يبرهن لهم أنه كان منصرفا إلى عمل نافع يتدبره، وقال لهم من فوره "اعملوا لي مئذنة على هيئة هذا المخروط الذي في يدي"

ولكن التعليل الأقرب للعقل هو أنه تذكر البرج المخروطي الهائل في جامع سامرا، وهو نفسه أحد المناظر العراقية حيث كان لا يزال برج زيجوارت في بابل قائما في زمن ابن طولون وحيث لا تزال قمة أغا جدف ترتفع ١٧٠ قدما إلى الآن في أفق بغداد. ولكن إن كانت عقود الجامع وهي من الطوب الأحمر المغطى بالملاط والجص، وكذلك زخارفه في الأروقة وحول الشبابيك باقية كما كانت قائمة في البداية، فمن المستيقن أو يكاد أنها بنيت من جديد على يد السلطان لا جين في عهد المماليك. والمئذنة في شكلها التي اتخذته في عصر أصبحت فيه المآذن تزهو برشاقة تغلو أحيانا فتبلغ حد التخنث، تمثل محاولة متعثرة للعودة بالمئذنة إلى أصلها الذي عرف كيف يقتبس في غير اختلاط أو اضطراب هذه الخطوط المنسابة التي ميزت المخروط الهائل في مسجد سامرا. لم تكن المئذنة منذ إنشائها زمن ابن طولون تبدو عجيبة

شاذة، إذ كانت المآذن -هذا الشكل المعماري المستقل- تستفتح أول عهود تطورها على مراحل امتدت قرونا عديدة. وكانت أوائل المآذن أبراجا مربعة حول الكنيسة الكبرى في دمشق التي أصبحت فيما بعد مسجدا. وكلمة مئذنة في الأصل تعني "مكان يسترعي فيه الانتباه" وكان يمكن أن تطلق على فنار كمنارة الإسكندرية.

والمدينة الإسلامية الثالثة -تلك التي اتخذت لأول مرة اسم القاهرة وخلعته على العاصمة كلها تقع إلى الشمال من جامع ابن طولون وتبعد عنه مسافة ميل، وكان إنشاؤها بعد قرن كامل من الفراغ من بنائه. لن يسعفك قطار أو ترام لزيارتها، ومن الأصوب أن تعدل عن ركوب التاكسي وتعتمد على قدميك، هذا بفرض أنك زرت جامع عمرو مع الفجر وجامع ابن طولون وقت الفطور تقريبا.

لهذه المدينة الثالثة بوابة جنوبية -متينة عفية- من طراز بيزنطي. جناحاها المحصنان ترتفع فوقهما -كأنما تتهلل لنا- مآذن رشيقة أقيمت في عهد لاحق. كانت تتهلل في الماضي للمجرمين، هي حقا جسر التنهدات وبعد أن كانت تتدلى منها حبال المشانق أصبحت مأوى خفيا لسيدي المتولي، إنه قديس يطير في الهواء من مكة إلى القاهرة بالسهولة ذاتها التي يطير بها بطل من ألف ليلة وليلة، إليه تكتب العرائض والشكاوي ويزج بأوراقها ما بين المسامير وخشب الباب، أمام استجلاب شفقته فيكون بلف مزق من قماش حول المسامير.

هذا هو باب زويلة ولكنه عند المتعلقين بالولي يسمى "باب المتولي" وهناك طريقان سهلان يؤديان إلى كلاهما ممتع لك. فإذا كنت تمشي مرخي القياد، غير متريث لتتأمل أثرا معماريا تقصده لذاته، إنما تتشرب بنظرة شاملة هذا السحر الذي تنفثه عمائر مسلم لها كمالها، أو تعرضت للبلى، فإن سيرك في أي الطريقين سيمدك بحيوية ونشوة لطيفة يتعاليان مع علو النهار ويناقضان ما بقي في نفسك من جو القبور التي تجلت لك تحت أضواء الفجر عند جامع عمرو.. أو من صرامة الجد والاحتشام التي استمد منها جامع ابن طولون مفاهيمه الأساسية. وتكفيك نظرة إلى أي خريطة لآثار العصور الوسطى في القاهرة لتعرف كيف تتبع هذين الطريقين فهما يتحاذيان أو يكادا، ويتجهان إلى الشمال فيكون النيل على يسارك والقلعة وتلالها الجرداء عن يمينك، وبدايتهما واحدة، فأنت تغادر جامع ابن طولون المستعلي فوق رابية، فإذا خرجت من بابه انعطفت إلى اليمين حتى تبلغ شارع الصليبة الممتد شرقا وغربا، هابطا من الميدان الكبير تحت القلعة إلى أن يبلغ ميدان السيدة زينب ثم يواصل امتداده المستحدث حتى النيل.

وشارع الصليبة شارع جدير بأن تعود إليه بالليل. ترى فيه "سبيلا" من طراز تركي، وحماما عتيقا أسدل على بابه -كستارة- بشكير حمام يستعمل كإزار، وجامعا له قبتان حيث يرقد اثنان متصدقان من رجال المماليك، والأفضل أن تكون هذه الجولة الليلية آخر شيء تفعله قبل أن تأوي إلى فراشك، وأن تكون بسيارة أجرة تسير بك على مهل، ولكننا الآن بالنهار، فأنت إذا تابعت شارع الصليبة في صعوده إلى القلعة بلغت مفترق طرق، ورأيت مشربا للشاي -شتان بينه وبين أمثاله في أوروبا على الرغم من وحدة الاسم. قد تخير مكانه قبالة "سبيل" انطلق فيه فن العمارة التركي على هواه، حتى لتظن لحظة أنك أمام منظر في أواسط آسيا لا في إفريقية، وللسبيل قبة جانبية يعلوها هلال، وخمسة أضلاع بارزة النقوش وفق الذوق التركي، وشبابيك حواجزها المعدنية مصنفرة بدقة وتداخل بارع. بجانب السبيل دكان يبيع البصل، يتعهده شيخ يعتم بطاقية بيضاء. إلى جوار مشرب الشاي رجل لفه الذبول يحتسي قدحا من القرفة باللبن.

سأعيد لك وصف جولتي محددا زمن كل رحلة، نفعا للقراء جاعلا قيامي بها في يوم معتاد من أيام شهر مايو، والسبيل هو من معالم جولتنا فمن عنده يبدأ أول طريق مؤداه إلى باب زويلة، يسمى ابتداؤه بشارع السيوفية، ثم يمتد مستقيما وإن تغير اسمه أربع مرات، ولا يقاطع إلا شارعا واحدا كبيرا، وهو الشارع الذي كان يسمى من قبل شارع محمد علي وأصبح اليوم يسمى بشارع القلعة، فإذا بلغته فجاوزه محاذرا حركة المرور المشتدة فيه، وتابع سيرك في الاتجاه نفسه فإنه الطريق، بعد اصطدامك الوحيد بالترام والسيارات، ما هو إلا سوق واحد متصل. إنني أمر بذبائح الجاموس وعلى اللحم أختام بنفسجية تتدلى أمام جدران بنيت قبل أول استيراد للبطاطس -وهو معروض أيضا أمامي للبيع- من أمريكا للقاهرة، ثم دكاكين صغيرة يشتغل أصحابها قعودا في نسج السجاد، ها أنا ذا أرى مصادفة أربعة من خف الجمل مقطوعة مطروحة تنتظر من يشتريها، ثم أمر بعد قليل ببرميل ممتلئ بالفلفل الأخضر اللامع فيهيج شوقي إلى أن أصنع لنفسي "سلطة" متبلة، ثم بأكوام من الطماطم، حباتها كبيرة. شتان بينها وبين طماطم أوروبا التي لا تزيد في الحجم عن كرة البلياردو -ولكنها تشكلت باعتساف كأجساد الفلاحين في لوحات المصور بروجل، ثم إذا بصبي يمرق من دكان يبيع العقود الذهبية ملوحا بحزمات خضراء وهو ينادي بصوت عال "نعناع. نعناع" كم هي عسيرة هذه الكلمة على نطقي، ولكن ها هو عطر جديد يختلط ببقية العطور التي تملأ خياشيمي، ثم أمر

بجدار تتدلى منه سلاسل من الأحذية والشباشب والصنادل، ثم ها هي امرأة متشحة بالسواد تبيع مسحوقا اسمه "الدقة" وهي أخلاط لا حد لها من حبوب متنوعة، شتان بينها وبين الفلفل، إنها لا تهيج شوقي إلى دخول المطبخ. ثم أمر بدكان مشيد حديثا بالأسمنت المسلح، فهو دميم في هذا المكان، تعالت على جوانبه كالجدران صفوف من علب مسحوق للصابون له شهرته أتريث من جديد حين يتسع الطريق قليلا ويستطيل، أدخل مقهى أمامها سقيفة، بلدية هي ولكنها مريحة، عليها لافتة تقول "قهوة محمد ناصف وأولاده" وأشرب فنجانا من قهوة ناصف التركية "السادة" أي خالصة بغير سكر. على حين يمر أمامي حمار يجر عربة محملة بالقدور الكبيرة، حشرت في أفواهها سدادات مكورة من الورق، هي قدور الفول المدمس، إنه الطعام المفضل الذي يلتزمه المصريون لفطورهم، يخلط بالزيت ويتبل. ادفع ثمن قهوتي ما يعادل خمسة بنسات -ثم أمضي فأمر على "قصارى" الأطفال من قبل أن أدخل إلى القسم الأخير من الطريق. إنه سوق مسقوف "وكلمة بازار الشائعة في الهند غير مستخدمة في مصر" وهذا السوق أمتع بكثير من سوق خان الخليلي ذائع الصيت، فخ السائحين من قديم. فهذا السوق المسقوف هو المكان الوحيد الذي يرسم لك أقرب صورة إلى الصدق باقية إلى اليوم من حياة الناس في عهد المماليك.. أبواب ضخمة -متروكة الآن مفتوحة دائما- رشقت فيها كرات من الحديد، وكان التجار يغلقونها بالضبة والمفتاح إذا ثارت ثائرة المماليك، هنا تستطيع أن تشتري بضاعة أصيلة تحمل طابع الشرق وتذكرك به، كلها من أجل الدواب، فهذا السوق المتخصص لصناعة أطقم الخيل والحمير، والسرج وغطاء السرج والعذار المنسدل حول رأس الحصان من خيوط صوفية، وهي أشياء تقصد أيضا إلى الزينة وإن بقي لها نفعها وثمنها معتدل، ثم إذا بهذا السوق الذي يتسلل إليه -كأنما من مصفاة- ضوء شاحب، ينتهي فجأة عند باب زويلة. هنا أنظر إلى ساعتي، إن مشواري من جامع ابن طولون -مع حساب تريثي لشرب الشاي عند السبيل ثم لشرب القهوة فيما بعد عند محمد ناصف وأولاده- قد استغرق من وقتي ساعة كاملة، لا تزيد ولا تنقص.

أما الطريق الثاني فهو يتساوى مع الأول في المتعة، وإن كان أطول وأكثر تعرجا، فلتأخذ شارع السيوفية طريقك، ثم انعطف في أول شارع يتجه بك يمينا إلى القلعة فتجد جامعين كبيرين -أحدهما جامع السلطان حسن الذي سنزوره فيما بعد- يحيطان بالطريق وهما على حافة وسعاية صغيرة، فلا تعرج عليها واقطع شارع

القلعة الذي لا يخلو من دمامة، ثم ادخل شارع سوق السلاح وهو شارع مزدحم ذو أبنية متداعية تريد أن تنقض، حتى إذا بلغت نهايته اتجه يسارا إلى شارع التبانة الذي يمر بجامع المار داني(*) ثم يتجه غربا فيحيط بالدرب الأحمر، وهناك تتكرر المساجد والمدارس العتيقة وأنغام الموسيقا الشرقية والدكاكين والمشارب مكونة الجو الأصيل الذي عرفناه. وإذا بك فجأة تجد باب زويلة شامخا على يمينك غير مواجه لك.

وهكذا تجدني دائم السعي إلى باب زويلة كأنما كانت هذه البوابة هي محط الأنظار، وإنها لكذلك، فهي المدخل إلى القاهرة الأصيلة.

وكما أن لندن الأصيلة عبارة عن نواة مسورة في وسط سوق أقيم حولها، فكذلك القاهرة، اتخذت اسمها وطابعها من قطعة مربعة من الأرض لا يزيد ضلعها عن ألف خطوة. هذه المدينة الداخلية التي بنيت أصلا لتكون مقرا لشؤون الحكم والدين، لا للإسكان والمعيشة، هي مدينة القاهرة. وهذه المساحة يحدها شمالا الجزء الشمالي من سورها الأصلي، وشرقا سور صلاح الدين الذي أقيم في فترة تالية، وجنوبا الدرب الأحمر وامتداده تحت الربع، وغربا مجرى الخليج القديم.

واستمرت القاهرة على شكلها الأصيل مدة قرنين. أما أصل بنائها فمعروف لنا تماما.. فهو اليوم الخامس من شهر مايو سنة ٩٦٩ وهي الليلة التالية لاستيلاء جوهر على مدينتي عمرو وابن طولون باسم مولاه المعز لدين الله. أما جوهر هذا فرقيق مسلم من أصل أوروبي، ومولاه هو رابع من تولى الحكم من أسرة عربية تونسية طالبت بالخلافة لانتسابها إلى السيدة فاطمة بنت النبي(**) التي تزوجت من علي ابن عم محمد وأشد أصحابه تحمسا للدين. وانبثقت فرقة من الإسلام -وهي الشيعة- تؤمن بأن الإمامة وقف على سلالة على من فاطمة. ويتبع مذهب الشيعة حاليا نصف سكان

(*) بني جامع المار داني في سنة ١٣٣٩ وهو يمثل خير تمثيل قدرة المزج في الفن العربي الإسلامي ، فأعمدته من كل شكل وحجم . فمنها الجرانيتية الحمراء المأخوذة من المعابد الفرعونية ، ومنها اليونانية الرومانية ومنها المسيحية القبطية . وتيجانها محلاة بزهرة اللوتس أو بالأزهار ذات الطراز الكورنثي بل إن بعضها وضع مقلوبا رأسا على عقب . ولكن الطريقة التي وضعت بها تضفي على الجميع وحدة تدعو إلى الدهشة مع أناقة تؤثر في النفوس . وهذه القدرة على مزج العناصر المتباينة من طراز جديد واحد هي إحدى السمات الواضحة في الفن الإسلامي العربي كما أننا نرى في المشربية التي تفصل بين رواق القبلة عن صحن الجامع المحاط بالأعمدة المقنطرة مثالا رائعا في أعمال الخشب في القرن الرابع عشر الميلادي وإن تجدد أكثره . وقد كان المار داني ساقيا للحاكم المملوكي الكثير الذرية الناصر محمد بن قلاوون وزوج إحدى بناته ، ثم صار حاكما على حلب حيث وافته منيته .

(**) لقد توفي كل أولاد النبي عليه الصلاة والسلام الذكور قبل البلوغ

العراق تقريبا وكل سكان إيران بينما تخلو منه مصر فهي تتبع المذهب السني، في حين كان مذهب الشيعة هو الأساس في إنشاء عاصمة البلاد التي نجتاز عتبتها الآن من باب زويلة، ودليل على ذلك أن باب النصر الموجود في الضلع الشمالي من هذا المربع الفاطمي لا نزال نقرأ ما نقش عليه بالخط الكوفي "لا إله إلا الله، محمد رسول الله" وهو ما يدين به المسلمون جميعا، مضافا إليه "علي وصي الله".

أما كيف بنى جوهر مدينة القاهرة.. ففي ذلك قصة طريفة. فقد جمع الحشود من العمال بمعاولهم ورصهم على أضلاع المربع الذي حدده على الأرض بوساطة قوائم من الخشب، وأوصل أعلى هذه القوائم بحبال مدلى منها أجراس، ووقف المنجمون المغربيون على استعداد يتفحصون أدواتهم وطوالعهم الفلكية حتى إذا اطمأنوا إلى دخول الوقت المبشر بالخير، حركوا الحبال لتمر عبرها الحركة -كالتليفون بدائي- فتدق الأجراس إيذانا بالعمل، ولكن الذي حصل هو أن غرابا وقف على الحبل وسبق المنجمين في هزه وإعطاء الإشارة، فانهالت الفئوس والمعاول من آلاف العمال تحفر الأرض. ولم يكن هناك مجال لمنع ذلك، فاكتفى المنجمون بأن يحسبوا الكوكب صاحب الطالع وقت الخطبة العشواء فوجدوه المريخ. ذلك الكوكب الأحمر اللون واسمه "القاهر" فأطلقوه على المدينة متحدين بذلك النذر التي يحملها معه وبذلك سميت المدينة "القاهرة" واجتازت النذر بأمان.

ولأفراد أسرة المعز صفاتهم المميزة الفريدة، فهم من ناحية من أصل عربي لا تركي، ومن ناحية أخرى كانوا يهتمون بالفن كاهتمامهم بالعلم، ثم إنهم بحكم شيعتهم قد انفصلوا عن بقية العالم الإسلامي. فظهر في الفن اتجاه حسي لم يظهر في العصور العربية الأخرى، اللهم إلا في إيران الشيعية، وبدلا من أن نرى الزخرفة العربية الجافة، نجد منقوشا على أوانيهم الخزفية صورا لعازفي العود، تتدلى من فوقهم عناقيد العنب، وتظهر لهم عيون واسعة وعمائم كبيرة، كما نجد رسوما لحيوانات أيضا، ويشهد على ذلك مجموعة رائعة من الخزف في المتحف الإسلامي.

ويتميز الفاطميون أيضا بالسرعة والهمة في الإنشاءات، وخير دليل على ذلك ما نراه إذا ما اتجهنا شمالا إلى منتصف المربع، ففي السنة التالية لتأسيس المدينة وضع جوهر أساس مسجد وجامعة الأزهر في أبريل في الجزء الشرقي من العاصمة الفاطمية، ولم تمر سنتان حتى كمل البناء واستقبل طالبي العلم في سنة ٩٧٢

ولا يزال لهذا الجزء من القاهرة -الذي كان أصلا المدينة الفاطمية- سحره وجماله

على الرغم مما شوه هذا الجمال مما استحدث بداخلها وعلى أطرافها من مبان تختلف عن إنشاءات العصر المملوكي ذات الحدائق الداخلية -وهي مبان مكونة من شقق قد خلت من كل جمال. وطالما شكا النقاد من أن المصريين لم يبقوا على كثير من قديمهم، ومنهم ستانلي لين بول حيث كتب منذ ٦٠ عاما إن "المصلحة التي تعنى بتخطيط الشوارع إنما قامت بمهمتها بأفق ضيق من الفكر في خدمة المدينة" ولكنني أقول إن كل مدينة محنطة، فالناشئة من الأطفال يحتاجون لمدارس يطلبون فيها العلم فكيف تنشأ لهم مبانيها بالسرعة اللازمة بدون الأسمنت وأسياخ الحديد؟ وعلى كل حال فلا يزال هناك قدر كاف من الآثار يعطي مجالا لتصور ما كان عليه الحال في الماضي.

إذا فلنأخذ الآن الطريق الذي يقودنا من باب زويلة في الجنوب إلى باب النصر في الشمال، وخير رفيق لنا في هذه الرحلة هو كتاب مسز ديفونشير المسمى "جولات في القاهرة" فهي ترشدنا فيه -كأحسن دليل- في لغة سهلة صريحة، وعن علم خال من الحذلقة إلى ما احتجب من آثار الماضي في أماكنها غير الجلية، وهي قادرة على كشف نفائس كثيرة اضطررنا إلى إغفالها في هذا الفصل من الكتاب. ولنتركها مع من عندهم فسحة من الوقت تطول إلى سبعة أيام أو أكثر يقضونها في القاهرة مع كتابها ونعود فنتقدم في طريقنا ونترك مستشفى قلاوون والآثار البديعة الأخرى التي خلفتها لنا عصور المماليك ونخطو في شارع بين القصرين الذي يصل باب زويلة بباب النصر حيث نكافأ في نهاية مسيرتنا المضنية في الزحام بجامع ثالث كبير هو جامع الحاكم الواقع تحت ظلال الأسوار العظيمة مباشرة..

وهنا يمكن توجيه بعض اللوم إلى القائمين على رعاية التراث الإسلامي، فجامع الحاكم بأمر الله جامع عظيم سمي أولا بالجامع الجديد وبالجامع الأبهى ولكنه يقف الآن في الناحية الداخلية من المدخل الشمالي للمدينة الفاطمية وقد أخذ التعب منه كل مأخذ وغطاه التراب. والأسوار تغطي الجامع وهي حماه، فلكي نشاهده بوضوح علينا أن نتخذ لنا مكانا فوق أحد برجي باب النصر. وأعتقد أنه لو سئل أحد المعجبين بالعرب عما أنجزوه لأشار أول ما يشير على الأقل إلى هذه الأطلال في القاهرة. صحيح أن في القاهرة جوامع أكبر حجما ولكنه يتميز عنها أنه أقيم لحاكم عربي الأرومة، ومع ذلك فقد أهمل ثم أصيب بحريق كبير في مستهل هذا القرن بعد معاملة قاسية دامت قرونا، في حين كانت الترميمات تافهة، فسقط كثير من الجص المنقوش عليه بالخط الكوفي، ومع هذا فله مئذنتان مديدتان واسعتان معقدتان ظاهرتان

فوق أبراج مربعة متراجعة، كما انتشر البلى في المجموعة الكبيرة من الممرات المبنية بالآجر تحتهما، وكذلك احتلت مدرسة غير ذات أهمية ركنا من أركانه.

وقد قدمت اقتراحا لأحد المواطنين العرب بضرورة العناية بهذا الجامع بدلا من إهماله لاسيما وأنه يقع في مدينة ينادي بها قلبا للعروبة فأجابني: "ربما كان الكره الذي لا يزال يكنه المصريون للحاكم بأمر الله هو السبب في إهمال جامعه"

والحاكم -حفيد المعز- كان أشبه بالإمبراطور كاليجولا الروماني. إنه كان مدللا شديد الأنانية تنتابه نوبات من التعقل والجنون، ومن التسامح والتعصب، كما كان مصدرا لكثير من المضايقات للناس في التافه من الأمور وفي خطيرها، وظل كذلك حتى لقي مصرعه. قتله شخص مجهول في الصحراء في أثناء تجواله فيها وهو راكب حماره. وكان من ضحاياه الأقباط فقتل منهم الكثير، وبائعو الملوخية التي حرمها، وهي طعام صمغي القوام محبوب عند المصريين إلى يومنا هذا، وحرم صنع أحذية النساء منعا لهن من الخروج من بيوتهن ليلا ونهارا، ومنع الناس من بيع الزبيب، وأمر بحرق الكروم وقطعها، كما حرم أيضا اللعب بالشطرنج، حتى الحيوانات لم تسلم من شره فأمر بقتل جميع كلاب القاهرة، الأمر الذي يجعلني أنفر منه. ولكن لابد من أن هذا الوحش المتأله كان يملك هالة من المهابة جعلت دروز لبنان يبجلونه إلى يومنا هذا ويجعلونه رمزا مجسدا للفضائل التي تجمعت فيه. ومع كل فإني أتردد كثيرا قبل أن ألج هذا الجامع ليلا ففيه من الخفافيش البالغ حجمها كحجم الدجاج ما تنقض وهي طائرة حتى بالنهار داخل البرج المربع الذي تسمو منه المئذنة إلى طرفها المزخرف ويصدر عنها عجيج يطغي على ضوضاء المارة في الطريق.

وبجامع الحاكم هذا تنتهي سلسلة من الجوامع ذات طابع واحد: طابع العزة الدينية، تماما مثل جامعي عمرو وابن طولون، نبعث من هذا الدين الذي ينزع إلى الديمقراطية في إحدى نواحيه. فكل الناس داخل الجامع سواسية لا تفاضل بينهم، يندمج فيهم الخليفة ولو حضر في فاخر ثيابه ووسط شديد حراسه. وكانت هذه الجوامع تشعر بالروح العسكرية وبالفحولة مثلما كان الشعب يجمع بين شعائر العبادة وحمل السلاح، وأعني بالشعب هنا المسلمين، فلم تكن وقتذاك جنسية عربية وأخرى تركية، فالكل سواء يقيمون الصلاة صفوفا خلف إمامهم يسجدون لله كما علمهم النبي العربي.

ولكن في جامع الحاكم ما يوحي بأن هناك تغييرا ما. ذلك أننا نعلم أن هذا الخليفة كان مختل العقل طاغية، ونعلم أيضا أن حراسه الذين خصصت لهم أحياء

كاملة في المدينة صارت لهم سطوة طغت أو كادت على سطوة الشخص الذي كلفوا بحراسته، فكانت هذه الرقة في عقود الجامع التي توحي بابتداء اضمحلال سطوة الخلفاء حتى فقدوها كلية، وظهرت الرشاقة إلى حد الأنوثة التي تبتعد عن الروح ذات البأس التي نراها متمثلة بوضوح في أعمدة جامع ابن طولون أكثر من أي مكان آخر، فهي مؤشرات تدل على أن الإسلام في عهد الحاكم ابتدأ في الانكماش والدفاع (انتهت الدولة الفاطمية عندما احتل الصليبيون القاهرة لمدة قصيرة سنة ١١٦٣).
ولم تعد الخلافة منذ عصر الحاكم تدل على ما كانت تدل عليه في القرون الأولى عندما امتطى المسلمون خيولهم مشرقين ومغربين، لا حدود تفصلهم عن الدنيا بأسرها، ثم بدأت الفرقة بينهم، وما كان الخليفة الفاطمي إلا واحدا من الذين ادعوا حق السلطان لأنفسهم ونافسه في ذلك صاحبا بغداد والأندلس.

من هنا نترك جامع الحاكم ونستقل سيارة أجرة، وفي طريق العودة. على بعد مئات قليلة من الأمتار وفي شارع بين القصرين الذي اجتزناه من قبل ندع السيارة تقف بنا هنيهة -دون أن يبطل عدادها عن العد- عند الجامع الأقمر، وهو أحسن جوامع الفاطميين. ولا نتلبث عنده إلا قليلا، ونطلب من السائق أن يتوجه بنا إلى جامع السلطان حسن قبل أن يدركنا الليل، وسيسر حتما بمنحة قرش أو قرشين زيادة.

ويبين جامع السلطان حسن ذو الضريح أن المستوى الحضاري للدين -وليست العقيدة نفسها أو تعاليمه- قد ناله بعض التغيير، كما أن المباني تغيرت في الشكل والروح، فهذا الجامع لا يقل عن جامع ابن طولون في إظهار قوة العقيدة حتى إن مدخله الشبيه بالدهليز يذكرنا بالمعابد الفرعونية التي صممت لتدخل الرهبة والخشية في النفوس المتعبدين ويشبهها أيضا في إقامة هذا البناء المتعالي الضخم لأجل أن يضم رفات إنسان ضئيل. ومدخل هذا الدهليز عبارة عن بوابة ضخمة تعلوها طبقات من المقرنصات المحفورة، وفي نهايته نجد صحنا واسعا مكشوفا للسماء التي تبدو بعيدة لأن الصحن محاط بأربعة إيوانات كبار ذات عقود طويلة معتمة حتى ليخال أنه محاط بغابة من الظلال. ويوجد الضريح خلف إيوان القبلة في قاعة متسعة ولكنه خال وهو الذي كان مستعدا لاستقبال جثمان السلطان حسن، واحد من حكام القرن الرابع عشر ليس بذي خطر كمثيله توت عنخ أمون فهو كان السابع من ثمانية أولاد خلفهم الناصر محمد المملوك الذي كانت له سطوة وقوة. ولكن ابنه حسن لم يستطع أن يقيم قاعدة يمسك بها أزمة الحكم بحزم على الرغم مما كان يكنه من عواطف نحو

المصريين المسلمين. وكفاه ذكرا أنه أعطى اسمه لهذه التحفة المعمارية ودليلا أيضا على حالة الدولة الإسلامية في أواخر العصور الوسطى.. وهذا الجامع ولو أنه بني خصيصا ليضم مقبرة فخمة لمنشئه فهو يضم أيضا أربعة مدارس، فعلى كل جانب من جوانب الصحن يوجد باب يؤدي إلى مدرسة يدرس فيها أحد المذاهب الأربعة المعترف بها في المذهب السني، والفروق بين المذاهب صغيرة جدا ولا يمكن أن تقارن بما بين مذهبي السنة والشيعة من اختلاف. ومع ذلك وعلى الرغم من هذه الرعاية كما نراها في المدارس وفي الميضأة الوسطى المخصصة للطهارة والوضوء فإننا نرى فيه رمزا للانطواء، فالسلطان حسن على الرغم من ميله إلى المصريين كان مملوكا أي غريبا من طائفة لم تندمج من الشعب سواء كانوا في عز قوتهم مشيدين أو كانوا في قلة حيلتهم متقلبين. ومن هنا نرى أن جامع السلطان حسن قد قطع بنا شوطا طويلا بعيدا من روح عمرو الذي أقام مدينة من الخيام وبنى مسجدا متواضعا لجنود ولي عليهم وهم معه سواسية. وعمرو هذا الذي قدم من بلاد العرب المحمدية حيث كان النبي يرفع ملابسه في بيت متواضع وحيث شاركت النساء في غزوات الحروب وندوات الأدب، بينما نشأ السلطان حسن على تقاليد دعت إلى حجزهن في "الحريم". ففي جامعه تجلت الملوكية بأوضح معانيها كما تجلت في وند سور في إنجلترا.

أما آخر مرحلة في رحلة اليوم فهي زيارة القرافة شرقي المدينة، فهنا شغل المماليك المتأخرون بقبورهم وأقاموها خالية من المدارس والميضأت، إنما هيئت للموت فقط.

وكثير منها جميل وكثير أيضا متداع، وتعددت القباب حتى صارت رمزا لمدينة الموت. وقد ابتدئ في زرع الأشجار في الأراضي المحيطة ولكن التراب يملأ ما بين القبور. هيا نختار واحدا منها. إذن فلنزر ضريح قايتباي فعسى أن يكون مفتوحا. وقايتباي واحد من المماليك ذوى النشاط عاش في العصر السابق مباشرة للفتح التركي العثماني. ويمتاز ضريحه بوجود زجاج ملون مرتفع فوق الجدران يسمح للأضواء أن تمر إلى الداخل.. أضواء ليست من صنع مصر.

ونكتفي بهذا القدر من التراب ومن ذكر الموت، فالتراب قد زكم الأنوف، وشعر الإنسان أن الدنيا قد انقلبت ترابية كلها. فلنختم رحلة يومنا هذا في فلوكة على النيل حتى يغسل النسيم الشمالي كل كآبة أصابتنا استعدادا لسهرة المساء. وفي الفلوكة -عندما تقترب الشمس للمغيب- نرى مسجدا جديدا بالقرب من كبرى يصل بين الروضة والجيزة، أطلق عليه اسم صلاح الدين تسطع عليه أضواء تجعله يتلألأ ناطقا بإحياء العمائر التي تمتد إلى السماء على الطراز القوطي.

الفصل الثاني عشر

القاهرة.. والأمسيات

إن لَيل القاهرة يظل عالقا في الذكر أكثر من نهارها. بل هو مثير للشعور أكثر بكثير من ليالي أوربا، ويرجع بعض ذلك إلى الطقس، فحالما تغيب الشمس خلف الأهرامات، تهبط درجة الحرارة في النهار حوالي ١٥ درجة -أوصيفا عندما تعلو فوق ٤٠ درجة. وتبدو النجوم أكثر عددا وأشد لمعانا بسبب جفاف الجو، بخلاف ما تبدو في الأجواء الرطبة. إذن فما هي المتعات التي ننتظر من القاهرة أن تقدمها لنا عندما ينتشر ألفان من خفراء الليل الكبار السن ببنادقهم العتيقة يجوبون شوارع المدينة المتطورة ويحرسونها؟

هناك أولا ستة عشر مطعما تنتشر على طول النيل، يتخذ بعضها مكانا في العوامات والباقي على الحدائق في الهواء الطلق، وتظل مفتوحة طول السنة آمنة من الأمطار التي لا تهطل إلا دقائق معدودة كل عام، ولو أن بعض ليالي الشتاء قد تبعث القشعريرة في الأجسام. أما مطعمي المفضل على النهر فهو كازينو الحمام على الشاطئ الغربي في الجيزة. والجيزة محافظة منفصلة عن القاهرة لها محافظها الخاص بها، وهو يحرم بيع المشروبات الكحولية في شهر رمضان عندما يصوم أتقياء المسلمين عن الطعام والشراب طول ساعات النهار، في حين يسمح بذلك محافظ القاهرة (في بعض الأماكن التي يرتادها السائحون). وعلى ذلك فلك

الحرية أن تطلب -طوال العام خلاف ذلك الشهر -ما شئت من البيرة والزبيب(*) والنبيذ المصري. وعصير الكروم المصرية في الحقيقة يستحق شهرة خلاف ما هو عليه، فمزارع جناكليس في الدلتا تنتج أنواعا متعددة من الأنبذة الحمراء والبيضاء بأسعار معتدلة، وهي بالتأكيد أجود بكثير من الأنبذة العادية المنتشرة في فرنسا.. وعمر الخيام هو أحسن الأنبذة الحمراء كما أن كلوس نسطور أحسن البيضاء. والصنف الوحيد الذي تجده في المطعم ليؤكل بجانب النبيذ هو الحمام المشوي على الفحم، وقد اتخذه الكازينو اسما له، فإذا أخذت في تناول طعامك أحاطتك -تراقبك بصبر- فرقة من القطط هي حتما نتاج تلك التي كان يقدسها الفراعنة، ويظللك وأنت جالس حفيف أوراق الشجر الكافور، بينما تنساب بجانبك -حتى تكاد تلمسها- الفلائك والمراكب ذات الأشرعة تحركها الرياح رائحة غادية تحمل حمولتها من البضائع..

وليست القاهرة مدينة يقصدها المهتمون بفنون الأكل وتذوقه، فمطاعمها - خاصة تلك الملحقة بالفنادق الحديثة- تقدم الطعام الغربي المعتاد الذي تتفاوت درجة جودته من جيد إلى متوسط، ثم إنها تقدم لك الأطباق باردة حتى طبق الأومليت، فإذا أصررت -كما أفعل دائما- على تقديمها ساخنة فأغلب الظن فإنها ستقدم لك شديدة الحرارة تصدك عن لمسها وتضطرك للانتظار حتى يمكنك الأكل. والحد من استيراد الكماليات يعني اختفاء بعض أنواع مثل الجبن الفرنساوي أو الإيطالي. ولكن اللحوم المصرية جيدة لاسيما لحم الضأن الصغير كما أن هناك أنواعا ممتازة من الأسماك تأتي من البحرين المتوسط والأحمر ويقال إن كمية الفسفور العالية في البحر الأحمر هي السبب في ضخامة حجم الجمبري السويسي.

ويمكن معرفة بعض الطرق الشرقية في تحضير الأطعمة بتناولها في المطاعم البلدية. وإذا كانت باريس مركزا تجتمع فيه مدارس الطهي الغربي فإن إسطنبول هي الأخرى تعد مركز تجمع للطهي الشرقي لا يقتصر عليها فقط بل تمتد فروعه إلى كل الولايات التي كانت تابعة للإمبراطورية العثمانية السابقة، أعني اليونان وسوريا ومصر، وإني شخصيا أضع الطعام المصري فوق اليوناني وأقل قليلا من اللبناني، فتجد من المطاعم البلدية الكفتة والكباب وهما أشهى أصناف اللحوم ويحضر كل

(*) الزبيب هو الإنتاج المصري للسائل عديم اللون الذي يتحول إلى لون أبيض عند خلطه بالماء . وهو معروف باسم أوزو في اليونان . وراكت في تركيا . ويسمى في البلاد الأخرى بالعرقي

منهما من لحم ضأن، أما الكفتة فتحضر بفرم اللحم ثم شيه فوق شواية، وأما الكباب فيشوى اللحم في قطع صغيرة منفردة، وتجد أيضا الملوخية وهي جديرة بأن يتذوقها المرء وهي نوع من الخضراوات الغروية التي سبق أن ذكرنا أن الحاكم -ذلك الخليفة المجنون- قد حرم أكلها. وصنف آخر هو طبق المخ والكبدة المقليين وتجده في مطعم صغير بالقرب من باب اللوق، وأما الكوارع وهي تحضر من حوافر الماشية فلم تمر من بين شفتي ولذلك لا أستطيع أن أحكم عليها..

وهناك مطاعم كثيرة نظيفة للوجبات الاقتصادية التي يقبل عليها القاهريون، وهي مطاعم الفول المدمس والطعمية. وتصنع الطعمية. على هيئة كرات صغيرة من خليط مكون من فتات الخبز والفول المجروش والبصل وبعض الأعشاب العطرية وتضاف إليه الخميرة ليصير هشا ناعما ثم ترش الكرات بحبات السمسم وتقلى في الزيت. وفي هذه المطاعم يمكن للشخص أن يتناول كفايته من الطعام بما في ذلك رغيف بلدي مستدير وسلاطة بما تعادل قيمته حوالي عشرة قروش.

ها نحن الآن قد فرغنا من تناول العشاء، والمعتاد في القاهرة أن تعوض كمية الطعام ما ينقصه من الجودة. فماذا بعد ذلك؟.

يجيب القاهريون عن هذا السؤال بطرق مختلفة ولكن الأمر المعتاد هو أن يقضي النساء أوقاتهن في البيوت في حياكة بعض الملابس الخاصة أو في مشاهدة التليفزيون أو الاكتفاء بالتحدث مع غيرهن من النساء. أما الرجال فيتوجه كل منهم إلى مقهاه من ضمن ستة آلاف مقهى منتشرة في المدينة لشرب الشاي ويقطع الوقت مع غيره في لعب الطاولة أو في مشاهدة التليفزيون أو مجرد الحديث، وهذه متعات تلزمهم الجلوس ولا تنطلق بهم. غير أن الشبان صاروا ينتمون إلى الأندية الرياضية ليمارسوا بعض الألعاب، وإلا فإنهم يزحمون الأرصفة عند مداخل دور السينما.

وأمسية الخميس هي أمسية السينما بلا منازع لأن الجمعة هو يوم الراحة.. وفي القاهرة اثنتان وتسعون دارا للسينما يختار المرء منها ما يحلو له، وجمهور السينما في العواصم العربية لا يقل حماسا لها أبدا عن أمثاله في البلد الأخرى. والقاهرة هي المدينة العربية الوحيدة التي توجد فيها صناعة سينمائية ضخمة فقد أنتجت استوديوهاتها التي تقع على طريق الأهرام أفلاما منذ العشرينات. وكان الإنتاج في بعض السنين يزيد على مثيله في بريطانيا، الأمر الذي جعل بعض المخرجين الرواد مثل يوسف شاهين يبدي أسفه لأن الكثرة طغت على الجودة وسلبته المقدرة على الوقوف بجانبها. ويأخذ الفن السينمائي المصري أسلوبا واحدا لا يغيره. ولي تجربة

شخصية مع هذه الصناعة عندما كانت تحت السيطرة الرأسمالية، فقد دعتني صديقة لتناول الغذاء مع أحد المنتجين الكبار وهو من أصل شامي بدأ حياته في تصميم زينات لشعور السيدات (وربما كانت جوستين إحدى عميلاته -البطلة الروائية في رباعية لورنس داريل) ثم خصص نفسه لتصميم الأفلام لملايين العرب. وطلب مني قائلا "أريد قصة يا مستر ستيوارت تليق بنجمتينا الكبيرتين فاتن حمامة وشادية، وستكلفانني معا نصف ميزانية الفيلم فلذلك أطلب أن تحتوي القصة على شيء جديد مبتكر" وقد سبق أن شاهدت هاتين السيدتين، إحداهما -فاتن- متزوجة من عمر الشريف الذي لعب دور الشيخ في فيلم لورنس، وهي فيما أعتقد أشد الممثلات إخلاصا لعملها، والأخرى -شادية- فتلة ظريفة تبدو مرحة ولها صوت رفيع.

سألت "أتطلب شيئا واقعيا؟"

فرفع يديه بأظفارهما الملمعة فزعا وقال "أعوذ بك يا مستر ستيوارت. أرجوك إن جمهورنا من الطبقة الفقيرة وعندهم ما يكفيهم من الواقعية، إنما أريد لهم أن ينطلق بهم خيالهم بعيدا عنها"

وهذا لا يطابق الواقع كما شاهدت في الأفلام المصرية، ولكنني كنت في ذلك الوقت محتاجا إلى المال -كما تعلم بذلك صديقتي- وكان ما عرضه علي -مقابل عشرين صفحة- ما أقنعني .إلا أن صديقا حذرني ناصحا: "خذ حذرك فإنهم سيدفعون لك أجرتك عن كل مرحلة من العمل إلا الأخيرة منها" وقد تبين صدق قوله فكنت لا أنال ما أستحقه إلا على أقساط ضئيلة وبعد إلحاح وكلما اتصلت بالمنتج تليفونيا فإما أن يكون "نائما" أو" متغيبا في سوريا". ولما انتهيت من القصة وبقي لي ثلث ما أستحقه قيل لي في نبرة استياء "كان يمكن لابني أن يسطر في صفحتين ما ملأت به عشرين صفحة، أما عن لغتك الإنجليزية فإن ابنتي وهي طالبة في الجامعة الأمريكية تقول إن المستر ستيوارت يكتب لغة إنجليزية جيدة ولكنها ليست بالإنجليزية الخالصة".

وماذا كان في مقدوري أن أفعل. لقد كنت غير راض عن هذا السيناريو غير الواقعي. ألم أظهر شادية في أحد المناظر وهي محرومة من الأولاد تبكي وفي يدها كتاب مفتوح من كتب الأطفال جالسة على أريكة من طراز لويس السادس عشر، فإذا انتهى هذا المشهد المرسوم تجف الدموع وتتحول إلى بسمات ونرى شبانا في سياراتهم وطائراتهم ثم تنتهي بهم حبكة القصة بغسل الدموع بالغناء والرقص. وقد مثلت كل من فاتن حمامة وشادية دورها جيدا.

وقد مثلت فاتن أيضا في فيلم "دعاء الكروان" وهي تراجيديا تدور وقائعها في الصعيد ألفها الأديب الكبير الدكتور طه حسين. وأخت فاتن في القصة يغويها محام فتنهض هي للانتقام منه، وكان النصف الأول من الفيلم واقعيا إلى درجة تظهر فيه الأقدام حافية تحوطها الخلاخيل. الأمر الذي لم نسمع به من قبل. وهبط النصف الثاني، وفيه نرى المحامي يصطحب فاتن -التي نراها في زى سيدات الزمالك- إلى نزهة على شاطئ البركة، وهو ما لا يخطر مطلقا على بال أحد في الصعيد المحافظ.

ولعبت شادية بعد ذلك دور فتاة من بنات الليل في أحسن فيلم -في رأيي- أنتج إلى الآن، هو فيلم "اللص والكلاب" كتب قصته نجيب محفوظ حول شرير تطارده الصحافة، وهو سفاح أصيب بلوثة وانتهى به الأمر بأن حوصر وقتل بالرصاص تماما مثل ما حدث للمجرم الأمريكي ويللنجر. وقد رمز نجيب محفوظ بهذا القاتل عن الشخص الحديث الحائر الذي خانه مرشده وتخلى عن مبادئه. ومن العجب أن هذا الفيلم قد خلا من مواقف المرح المصطنع والفقرات الخطابية الجوفاء، فجاء السيناريو سريع الحركة قاسيا مثيرا قليل الحوار.. ولم يكن سبب انحراف البطل تافها فقد دفعه إليه -في أثناء عمله كخادم في بيت الطلبة- طالب يساري لا يقيم وزنا للقيم الروحية. وكان هذا الطالب يعتقد أن المبادئ الأخلاقية قد بليت وعفا عليها، وأن اللص في البلاد الرأسمالية حينما يسرق إنما هو شخص تقدمي، وهي أفكار قد عفا عليها في الغرب ولكنها لا تزال تأخذ بقلوب بعض الأشخاص. إلا أن هذا الطالب يغدو صحفيا ناجحا ويتزعم حركة مطاردة تلميذه الذي طبق دروسه بحسن نية، ثم ينشرح صدره عندما يبلغه نبأ مقتل المجرم. صرعه رجال الشرطة برصاص المدافع الرشاشة بجوار جدران جامع الجيوش. ولم يبكه أحد سوى بائعة الهوى.

وهناك علامات توحي بأن الأسلوب المعتاد الذي يسيطر على قصة الفيلم المصري لم يعد له مجال كبير، وظهرت مناقشات في الصحف كان اتجاهها ضد الاعتماد على أسماء النجوم فقط لما تبين -كما أخبرني صديقي المخرج- أن ذلك كان يستغرق الجزء الأكبر من ميزانية الفيلم الضئيلة (حوالي ٢٥٠٠٠ جنيها) فلا يبقى إلا القليل لكاتب السيناريو وبقية الفنيين المتخصصين، كما أن أكثر النجوم ليست لهم قدرة فنية كبيرة، لأن خبرتهم في التمثيل نبعت نتيجة لاجتهادهم الشخصي، ولم تنبع نتيجة للتدريبات المنتظمة في دور التمثيل التعليمية، وقد يقفز أجر الوجه الجديد المبتدئ.. وإذا لقي حظوة لدى الجماهير من ١٥٠ جنيها في الفيلم الأول إلى

ألفين من الجنيهات في الفيلم الثاني، ثم يملؤه الإطراء بالغرور طول حياته، ما لم يكن -مثل عمر الشريف- صاحب موهبة حقيقية.

ويمكن القول بأنه لن يتم إنقاذ الفن السينمائي المصري والنهوض به إلى المستوى الذي يجعله جديرا بالتقدير في الدوائر السينمائية العالمية إلا عن طريق النهضة المسرحية التي تعد الظاهرة الثقافية الكبرى في مصر والتي استمرت قوية منذ ظهورها في أوائل الستينات.

وقد ظهر التمثيل المسرحي في مصر في نهاية القرن التاسع عشر واستمر بشكل أو بأخر حتى سنة ١٩٥٢ فلا نجد فيها سوى مسرحين جادين فقط، أما الآن فهناك ما لا يقال عن ثماني عشرة فرقة مسرحية تعمل على أربعة عشر دارا مشيدة للتمثيل، وهذه الفرق قابلة للزيادة وتختلف المسرحيات التي تقدم على مدى واسع ابتداء من الكوميديات المحلية التي تتخذ فيها عناوين مثل "بابا ما يعرفش" إلى ترجمات من بيكت ويونسكو. ومن هذه المسارح مسرح الجيب الذي أنشئ ليعرض مسرحيات الكاتب المسرحي الأول في مصر، وكذلك أنشئ معهد عال للفنون المسرحية يتخرج منه ممثلون شبان يجد كل منهم عملا -بضمان من الحكومة- حال تخرجه. وقد أجريت حديثا مع الوزير المسؤول عن الثقافة في مكتبة في أحد الأدوار العليا من مبنى التليفزيون العربي على النيل مندوبا عن هيئة الإذاعة البريطانية شرح فيه اتجاه الحكومة نحو الثقافة فقال:

"منذ قيام الثورة صارت مقاليد الحكم في أيد مصرية صميمة، وذلك لأول مرة منذ العصور الوسطى وهدف الحكومة هو تعميم حد أدنى من الثقافة بين جماهير شعبنا جميعا، ولا تسوّغ إقامة شخص في أسوان أو حتى في واحة سيوه أن يكون بعيدا عما يجري حولنا في العالم الحديث، بل يجب أن يكون على بينة من ذلك، إما بقراءة الصحف أو حتى بمشاهدة التليفزيون، ونحن سنوجه مجهودنا الأكبر -بدون أن نستحي من ذكر ذلك- إلى الجمهور الكبيرة لأننا نعتقد أنه عندما يتمكن جميع أفراد الشعب من معرفة القراءة والكتابة وأن يعمهم جميعا حد أدنى من الثقافة فقد كونا بذلك قاعدة عريضة قوية يمكن أن نبني فوقها إلى أن ينتهي بنا البناء إلى قمة هرمية من الكفاءة العالية"

وهذه المحاولة الواعية لجعل القاهرة مركزا للإشعاع الثقافي لجميع أنحاء البلاد يظهر واضحا في الموسيقا، وبشكل أوضح في الغناء. وقد كانت الكلمة طوع فصاحة

العرب دائما، وفي الوقت نفسه تؤثر بسهولة على عواطفهم. وكان الشعر هو الفن الصحراوي القد، وفي مصر المثقفة تغلغلت أغاني أحمد شوقي وأحمد رامي الشعرية في الجماهير العريضة باستماعها إلى صوت سيدة فريدة هي السيدة أم كلثوم، ولها معجبون في العالم العربي كله. وقد كان من عادتها أن تقيم حفلاتها في الخميس الأول من كل شهر فتملئ المقاهي من بغداد إلى مراكش انتظارا لأغنيتها الجديدة. ويوجد في القاهرة بالقرب من ميدان التوفيقية مقهى أم كلثوم، وهو من ثلاثة طوابق، الأرضي منها مفتوح على الشارع وهو مقهى عادي بأنواره وضوضائه، والطابق الثاني خافت النور وبه مسجل للصوت ينساب منه صوت أم كلثوم قويا يستمع إليه شباب من الطليعة وموظفي الحكومة والجنود ساعات متواصلة وهم جالسون يرتشفون القهوة في هدوء، أما الطابع العلوي فالنور فيه أشد خفوتا يجلس فيه المدمنون على الاستماع في خشوع تام حيث تعتبر مجرد الهمسة بخسا في محراب الفن.

أما بخصوص الفنون الشعبية فقد اتجه تشجيع الدولة لها نحو التهذيب دون البتر أو الحجر أي -على حسب التعبير الفرويدى- إن الدولة أخذت وظيفة الأنا (السوبر إيجو) أي النفس الحكيمة التي تضبط وتنظم "الإد" أو الغرائز اللاشعورية التي تهيمن على الجماهير. وقد طبق هذا التهذيب على الرقص.

ولكي ندرك هذا الموقف يجدر بنا أن نرجع إلى أوائل القرن التاسع عشر عندما ألف لين كتابه عن عادات المصريين. ففي ذلك الوقت ذكر لين أن الراقصين كانوا صنفين: الأول منهما يتكون من الغوازي وهن نساء قبيلة معينة كن يرتدين عند الرقص زى السيدات التركيات الأنيقات في ذلك العهد، وهو عبارة عن سراويل واسعة وصديرية وحزام يغطيها كلها قفطان ذو أكمام مدلاة مشقوقة، ويضعن فوق رؤوسهن قلنسوة منبسطة. وقد تتبع لين أصولهن حتى العصر الروماني. وكن مطلوبات للرقص أمام الضيوف الرجال في حفلات الزفاف. وكتب لين الوقور "أما عن رقصهن فيكاد يكون خاليا من الأناقة، وأهم ما يميزه هو هز الأرداف هزا سريعا من جانب إلى آخر

وحيث إن التقاليد المحافظة النابعة من الدين في ذلك العهد كانت لا تسمح باختلاط الجنسين، فما بالك برقص النساء أمام الرجال حتى ولو كن من طائفة احترفت هذه المهنة من قديم الزمان. فإن ذلك استدعى ظهور الصنف الثاني من

محترفي الرقص للتغلب على هذا الاعتراض واعتبره بعض الغيورين أفضل قليلا من الاختلاط. وهذا الصنف يتكون من رجال أهل البلاد يتزيون بزي النساء وينتحلون شخصيتهن، وعلى ذلك يؤدون الحركات نفسها التي وصفناها عند ذكر رقص الغوازي، وعلى نغمات الصاجات مثلهن تماما وحتى لا يشتبه على البعض فيعتقد أنهم من النساء حقيقة فقد تخير هؤلاء الراقصون لزيهم لباسا يتفق مع مهنتهم غير الطبيعية، يخلط بين ملبس الرجال وملبس النساء، ويتكون عادة من صديرية ضيقة وحزام مع نوع من "الجونلات".. إلا أن منظرهم العام يوحي بأنه نسائي أكثر مما هو رجالي لأنهم يطلقون شعورهم ويجدلونها -كما تفعل النساء-على شكل ضفائر نسائية، وينتفون شعر الوجه عندما يبدأ في الظهور، وكانوا يقلدون النساء أيضا في تكحيل العيون وصبغ الكف بالحنة، ثم إنهم بعد الانتهاء من أداء رقصاتهم، يتحجبون في أثناء سيرهم في الطرقات لا استحياء من مهنتهم بل إحكاما في تقليد النساء. وكثيرا ما كانوا يفضلون على الغوازي للرقص أمام الدور أو في أفنيتها الواسعة في مناسبات الزواج أو إنجاب الأولاد أو الختان، وكثيرا أيضا ما كانوا يزاولون مهنتهم في المهرجانات الشعبية العامة.

أما رقص البطن المنتشر في النوادي الليلية الحديثة (وفي القاهرة منها خمس وعشرون ناديا ليليا) فهو آخر مرحلة من تطور رقص الغوازي، وبدلت الرقص ليست من تقاليد البلاد في شيء إنما هي اعتقادات خاطئة في أذهان بعض مصممي الأزياء الأوروبيين ابتدأت عندهم عند عرض منظر الرقص في أوبرا "عايدة". وهذه البدلة تبدي جزءا عاريا من الجسم بين غطاء الصدر النحاسي اللون وبين الجزء السفلي الشفاف. وفي عهد فاروق كان معجب براقصة يرمي تحت أقدامها بعملات ذهبية رقيقة كصفائح الصفيح فتأخذ كل راقصة ما يلقى عليها من عملات وتثبتها في بدلة رقصها كالترتر.

وكانت المنطقة العارية من البطن أول ضحايا "التهذيب" الحديث. فصدر قرار بعد الثورة بوجوب تغطية هذا الجزء من البطن بالشاش أو بالتل. وحاول -عبثا- بعض ذوي الأفكار النظرية خلق نوع من الفن "الخالص من هذه الرقصة المثيرة للغرائز والتي تأخذ في أسوأ حالاتها شكل هزات كأنها الرعشات على توقيعات سريعة من ضربات متلاحقة من الطبول. وكثيرا ما نجد عازفا كفيفا في الفرقة الموسيقية ولا يقتصر أداء رقص البطن على النوادي الليلية مثل الموجود في فندق

هيلتون، بل يمكن مشاهدته في أي حفل زفاف في المدينة حيث تهتز البطون العارية مع الحركات نفسها والإيماءات المتوارثة كما كانت من قبل على الدوام. ولا يزال في الإمكان استخدام الراقصين الرجال المتزيين بزي النساء، وقد تركوا شواربهم تكبر وشعورهم تنمو إلى جدائل طويلة وينتفون حواجبهم وصاروا يعرفون باسم "أبو الغيط" بدل اللقب الذي كان يطلق عليهم سابقا لأنه صار الآن نوعا من الشتائم والإهانات ذلك أنه أصبح يطلق على المخنثين من أصحاب الشذوذ الجنسي.

وإذا كانت الغوازي والمتشبهون بالنساء مظهرين من مظاهر "الإد" أو الغريزة فإن فرقة رضا للفنون الشعبية تحظى بالقبول لدى "السوبر إيجو "أو" الأنا" وكان السبب في تكوينها أن فرقة أوبرا بكين زارت القاهرة بعد اعتراف مصر بالصين دعوة "لفرقة مصرية راقصة" أن تزور بلاده. وسببت هذه الدعوة حرجا حيث لا يمكن التفكير مطلقا أن ترد الزيارة فرقة من الغوازي أو المتشبهين بالنساء، ومن ناحية أخرى لا توجد فرقة أخرى صالحة ولكن لم يلبث هذا الحرج طويلا حيث بادر كل من محمود رضا وزوجة أخيه فريدة فهمي وكونا فرقة راقصة بسرعة تستحق الإعجاب، ونالت هذه الفرقة شهرة عند الجماهير نتيجة لحبهم إياها. وقد تكونت هذه الفرقة في مبدأ أمرها من طلبة جامعيين (وقد سبق لمحمود رضا أن قام بالرقص لمدة عام في باريس مع فرقة ألفر يدو ألا ريا الأرجنتينية الراقصة). وكما جاء في جريدة "الأراب أوبزرفر عن الفرقة فإنها" قدمت من سنين عديدة باليها كاملا باسم" عروسة النيل تحكي قصة عاشقين قرويين -على غرار روميو وجوليت- ولكنها تنتهي نهاية سعيدة. وصار هذا الباليه محور عروض الفرقة في تجوالها في ألمانيا ويوغوسلافيا والاتحاد السوفيتي حيث قدمت سبعة وعشرين عرضا، واشتركت الفرقة في يوغوسلافيا في مهرجان للرقص الشعبي وحازت على الجائزة الأولى".

ما الفن الشعبي الآخر وهو القراجوز فقد تغير هو أيضا تغييرا شاملا مماثلا لما حصل للرقص وهو يشبه عروض بانش وجودي في بريطانيا، وكلمة قراجوز وهي كلمة تركية تعني "العيون السود" -كانت اسما لأحد مهندسي صلاح الدين، ولكن لا نعرف كيف أطلقت على هذا الفن الذي تتوه أصوله الأولى عند السهول الصحراوية على مشارف الصين. وكان القراجوز يعرض على طريقة خيال الظل فكانت عروضه لا تقام إلا ليلا كما ذكر لين في كتابه المذكور. وقد عثر على مجموعة جميلة من عرائس القراجوز في حفريات في الفيوم (على بعد ساعة بالسيارة من القاهرة) وهي

موجودة في برلين، وقد صنعت في القرن السادس عشر لتسلية أحد البكوات المماليك. وتمتاز بيريه في اليونان الآن بعروض القراجوز في شكل خيال الظل وعلينا أن نتوجه لهذه المدينة إذا رغبنا في مشاهدة هذا العرض فنشاهد أشكالا شفافة ملونة مصنوعة من الرق وهي تلعب كوميديات غالبا ما تكون مخلة بالآداب أما في القاهرة فلا يزال القراجوز يطلق على عرض للعرائس مثل "بانش وجودي" تصاحبه جلبة عالية، ويطوف في شوارع المدينة بصحبة بعض البهلوانات وعازفي الصندوق الموسيقي -البيانو لا- الذي تزينه صور سيدات على الطريقة النابولية. وأعرف شخصيا اثنين ممن يحترفون هذا الفن من العرائس القفازية الذين سرعان ما يجذبان جمهورهما بأصواتهما ذات النبرات العالية نحو كشكيهما ذوي الألوان المبهرجة، ويندمج الأطفال في بعض الأحيان مع هذه العرائس إلى درجة أن يقفز من بينهم طفل يحاول أن يقرص واحدة منها تحت السرة تكون قد أثارته، الأمر الذي يبعث السرور عند مرتشفي القهوة الجالسين على شرفات المقاهي."

وكما أمكن تهذيب رقص الغوازي والمتشبهين بالنساء إلى فن من الرقص الشعبي، كذلك أمكن تطوير القراجوز إلى مسرح للعرائس تحت إشراف وزارة الثقافة. وكانت فرصته التي ساعدته على الظهور إنشاء مسرح خاص بأنواره التي يمكن التحكم فيها. وفي يناير سنة ١٩٦٣ ألف صلاح جاهين -أحسن رسامي الكاريكاتير وأضخمهم أيضا -رواية "حمار شهاب الدين" لهذا المسرح، وهي قصة خرافية وقعت حوادثها في بغداد ولكن على أحدث التقاليد. وكانت الإضاءة بديعة وتحريك العرائس بارعا. ولكن على الرغم من براعة صلاح جاهين بوصفه زجالاً وليس بوصفه رساماً كاريكاتورياً فقط فإن من كتبت هذه الرواية تحت رعايتهم اشترطوا عليه ألا يأتي بأي فحش في القول أو عنف أو نكات ذات ثورية. فكان هذا الوقار سببا في فقدان كثير من الميزات الخاصة بهذا النوع من الفن والتي نجدها في العروض الشارعية. وهذه الأخيرة التي لا تنتفع بأية مساعدة مالية من الدولة تذكر -أو هي تعرف بالغريزة- بديهية دورانتي أستاذ فن العرائس العظيم في القرن التاسع عشر الذي يقول فيها "ما تؤديه العرائس هو أهم ألف مرة مما تنطق به"

الفصل الثالث عشر

العلم والتعليم

عرفت القاهرة طوال ألف سنة معدودة بأنها أهم مركز لنشر العلم في إفريقية، ولا شك أن هذه الصدارة لم تكن على الدوام ميزة خارقة، ذلك لأنها الصدارة على عدد قليل جدا من معاهد العلم في تلك القارة. ولكن هذه الميزة زادته جدارة في المائة السنة الأخيرة.

ويأتي تفوق القاهرة في مضمار نشر العلم نتيجة لإنشاء الأزهر في السنة التالية لدخول الفاطميين إلى مصر، وكان إنشاء هذا المسجد الجامعة دفعة حيوية لمصر والإسلام وإفريقية، فيحق علينا هنا أن نشيد بصاحب الفضل في قيام الأزهر ونذكر اسمه كاملا فهو جوهر الكتاب الصقلي(*)، وينطق المصريون الجيم في اسمه جامدة ولا يعطشونها كما تعطش في كثير من البلاد العربية.

وقد اتسع الأزهر (جامع الأزهر) كثيرا على مدى الأعوام والقرون، أما الجامع فيحتوي على تعويذة عجيبة، وهي عبارة عن رسم لطيور الحية من اتخاذ أعشاش لها داخل مبانيه. وكما بنيت كليات أكسفورد أصلا حول الكنائس والمحاريب (ولم تخطر فكرة إنشاء بيوت مخصصة لمعيشة الطلبة إلا فيما بعد) فكذلك كان المسجد هو النواة التي امتد الأزهر حولها فخرج عن نطاق التعويذة وأصبح لا شيء يحول

(*) معروف في كتب التاريخ العربية بجوهر القائد الصقلي لا بجوهر الكتب فهو صاحب السيف الذي فتح مصر للفاطميين . (المترجم)

دون زقزقة العصافير أن تنازع انصراف الأساتذة إلى إلقاء محاضراتهم. ولكن على حين أن أكسفورد -التي قامت بعد الأزهر- أخذت تتقدم وتتطور سريعا بعد القرن السادس عشر فقد بدا أن الأزهر ظل راكدا، كبلته التقاليد الموروثة وإن اعترف لها بأنها تشتمل على محاسن كثيرة، ولا يزال العلم في الأزهر يروع زائره إلى اليوم حين يرى أستاذا مبجلا مهيبا يتحلق حوله تلاميذه وهم قعود على الأبسطة في الجامع الكبير. ولكن مناهج الدراسة كانت محدودة وطابعها سلفيا فهي مقتصرة على تدريس تجويد القرآن وعلم الحديث وقواعد اللغة العربية والفقه الإسلامي.

أما الطلبة أنفسهم فكانوا يقسمون حسب موطنهم، ولكل قسم مكانه الخاص به، للإقامة والدرس داخل الأزهر، وتسمى أمكنة الإقامة بالحارات وأمكنة الدرس بالأروقة. والرواق مكان محدد بين أعمدة معينة. وإليك بيان أقسام الأروقة حتى القرن التاسع عشر: رواق الصعايدة (مصر العليا)- رواق المجاورين (مكة والمدينة)- رواق أبناء السودان ودارفور -رواق الشوام- رواق أبناء جاوة-رواق أبناء الأفغان- رواق المغاربة (شمال إفريقية)-رواق أبناء الصومال-رواق الأتراك- رواق الأكراد- رواق أبناء الهند-رواق أبناء بغداد-رواق أبناء النوبة-رواق أبناء الواحات والفيوم. أما الإيرانيون فلم يكن يفد منهم أحد لتمسكهم بالمذهب الشيعي، فالأزهر وإن نشأ على مذهب الشيعة قد تحول إلى مذهب أهل السنة بعد زوال حكم الفاطميين. حقا هيهات أن نجد في الماضي أو الحاضر جامعة دينية مخصصة لتدريس المذهب الأم (كالكاثوليكية في المسيحية) تضم مثل هذا الحشد الهائل من الطلبة الذين يضمهم الأزهر من بلاد مختلفة. أما تأثير الأزهر -حتى أيام تخلفه- فعظيم، لأن أئمة الدين في المجتمعات الإسلامية المختلفة في أنحاء العالم اتخذوه منارا وعدوه ينبوعا لأصول الدين قبل تفرق المذاهب (كالأرثوذكسية في المسيحية).

وهناك مرحلتان رئيستان مر بهما الأزهر في محالة تجديده ليلائم العصر، الأولى بتأثير من الشيخ محمد عبده في العقد الأخير من القرن التاسع عشر، إذ جعل للأساتذة مرتبات ثابتة دائمة، وأضاف بمجهوداته كليات جديدة. أما المرحلة الثانية فجاءت بعد ثورة سنة ١٩٥٢ بقيادة الرئيس جمال عبد الناصر، فقد أدركت حكومته أن المتخرجين من الأزهر يعودون إلى كل ركن من أركان إفريقية وآسيا غير مؤهلين إلا لتدريس الدين واللغة العربية، ورأى الرئيس جمال عبد الناصر ومستشاروه أن في استطاعة هؤلاء الخريجين أن يكونوا قادة -كل واحد منهم في

موطنه- لا باقتصاره على تدريس العلوم الدينية وحدها، بل كذلك بتدريس أساليب العلوم والنظم العملية اللازمة للمجتمعات النامية.. إذن يجب على الأزهر أن يكون معهدا تقدميا يساير العصر دون أن ينحصر داخل العلوم التقليدية، فبفضل هذا التطور يتحقق الصالح العام للعالم الإسلامي. فكان أن ظهرت حركة تشابه تلك التي أنتجت القسيس العامل خارج كنيسة للخدمة العامة عند الكاثوليك. والآن نرى الهندسة وبقية العلوم تدرس لطلبة الأزهر، كما سمح للبنات بالالتحاق به، وهو أمر لم يكن يتصوره أحد حتى في الجيل السابق القريب العهد بالجيل الحاضر.

وفي سنة ١٩٦٤ أعلنت خطوة جديدة جذرية وهي مشروع إقامة جامعة جديدة للأزهر على مساحة ٥٠٠ فدان في مدينة نصر، وهي ضاحية سريعة النمو لها إدارتها الذاتية وتقع شمال العباسية، كما ستخصص ١٥٠ فدانا أخرى في القبة لإنشاء كلية إسلامية للبنات تابعة للأزهر.

إن تطور الأزهر وهو يضم ٤٠ ألف طالب موزعين على معاهده الابتدائية والثانوية والمخصصة للدراسات العليا إنما هو -من أحد الجوانب -نتيجة تحد من نظام تعليمي آخر في مصر، نظام علماني صرف، فعلى حين ظل سيل من التلاميذ يرتدون القفطان والعمامة، ويدرسون وفقا لمنهج سلفي لم يتبدل إلا قليلا منذ القرون الوسطى، تدفق سيل آخر يرتدي الملابس الإفرنجية ويدرس علوم الذرة والاقتصاد السياسي، ولم يكن بين التيارين إلا اتصال قليل أو قل لم يكن بينهما اتصال على الإطلاق.

وترجع هذه الثنائية في نظام التعليم إلى المدارس العسكرية التي أنشأها محمد علي، واتسعت الهوة بين النظامين خلال القرن التاسع عشر، منذ إنشاء دار العلوم سنة ١٨٧٣ إلى إقامة جامعة فؤاد سنة ١٩٢٧، وإمداد هذه المعاهد العليا بالطلبة يستند إلى نظام تعليمي بين ابتدائي وثانوي.. هو الآن إجباري وبالمجان. ونسبة الالتحاق بالجامعة من بين الطلبة الذين أتموا الدراسة الثانوية هي أكبر من مثيلتها في بريطانيا اليوم، ولكن هذا لا يعني أن المستوى يرتفع إلى الدرجة نفسها أبدا، ولكن إحصاءات التعليم عن سنة ١٩٦٣-١٩٦٤ توضح مدى انتشاره فمثلا بلغ عدد الطلبة في المدارس ٦٠٨ ألف طالب منهم ٢٦٢ ألفا من الطالبات، ويبلغ مجموع عدد الطلبة الملتحقين بالدراسات الجامعية دون الدراسات العليا في جامعتين في القاهرة من أربع جامعات (جامعة القاهرة التي حل اسمها محل جامعة فؤاد، وجامعة

عين شمس) ٣ ٩١ ٧٢ طالبا منهم ١٦ ألف طالبة أو أكثر قليلا، وهذه الأرقام وإن بينت أن النساء لم يأخذن قسطهن في مجال التعليم كاملا، إلا أنه يبين في الوقت نفسه سرعة انتشار تعليم البنات. وكل النساء اللاتي يقمن بدورهن المتزايد الفعال في الحياة المصرية خريجات هذه الجامعات، وخير مثل منهن هي حكمت أبو زيد الوزيرة (السابقة) للشؤون الاجتماعية التي كان من أعبائها أن تنشئ ٧٠٠ مركز لتنظيم النسل في جميع أنحاء الجمهورية.

ولأن القاهرة ترى نفسها مركزا تعليميا لإفريقية، فإنها -فضلا عن منح عشرات الألوف من الشبان والشابات الإفريقيين منحا دراسية في معاهد -تستغل قوة الإذاعة التعليمية فتذيع من محطة الإذاعة المصرية "برنامج صوت إفريقية" يوميا باللغات الأمهرية والسوا حلية، واللنجالا والسيسوتو، والنينجا، والصومالية، والفولانية، والهوسا، وأخيرا باللغتين الإنجليزية والفرنسية لمن لم تكن لغته إحدى هذه اللغات.

الفصل الرابع عشر

القاهرة.. والفراعنة

يمكن أن يعتبر هذا الفصل القصير سلبيا . فليست القاهرة الفرعونية في شيء ولكنها تحوي المتحف المصري في ميدان التحرير، ويضم أفخر مجموعة من الآثار المصرية في العالم. ويمكنك في مقابل قرشين التجول في أكثر من مائة غرفة فيه تضم بقايا مدنية ابتدأت منذ عرف الإنسان معيشة المدن. ويمر سيل لا ينقطع من الزوار من كل أنحاء العالم أمام أثاث توت عنخ أمون المتين أو يواجه موميات رمسيس الثاني وسيتي الأول (وكانت الموميات في عهد فاروق محجوزة عن أعين السواح، فقد اعتبر هذا الملك هؤلاء الفراعنة ملوكا سابقين يجب أن تضفي عليهم جلالة الملوك، أما الجمهورية الديمقراطية فقد سمحت -نظير رسم قدره ٢٥ قرشا- بدخول القاعة رقم ٥٢ حيث تعرض الموميات حاليا). ويفخر القاهريون بمتحفهم ويعتقدون أنه السبب الرئيسي لحضور ٤٠ زائر سنويا للبلاد. ولكن الأسماء التي أشرفت على هذا المتحف ليست مصرية فقد أنشأه أوجست ماريبت الفرنسي وصمم مبانيه نارسل بور جنون عالم المصريات، والدراسات التي بدأت بأوروبيين أمثال شامبليون وماريبت لم تشمل المصريين بأعداد كبيرة إلا أخيرا..

وإذا كانت القاهرة مدينة إسلامية وليست فرعونية، فإنها في الوقت نفسه مركز باهر للدراسات الفرعونية. وترجع جاذبيتها العظمى في هذا المجال -حتى للسائح الخالي البال- إلى قربها من الجيزة وسقارة. وهناك عرض بالصوت والضوء عند الأهرام يقام كل ليلة يسترجع ألوف السنين التي سبقت البطالسة. ويستقبل أبو

الهول -وقد تجلى بعد إزالة الرمال من حوله- أشعة الشمس كل صباح على جبينه وهو يحدق بلا مبالاة ناحية المدينة. ويمكنك أن تشاهد -وأنت واقف على جبل المقطم عند الضاحية الجديدة- سلسلة من الأهرامات تمتد جنوبا حتى نهاية البصر. وإذا وصلت إلى محطة القاهرة قادما من الإسكندرية أو بور سعيد فستشاهد خارجها تمثالا ضخما لرمسيس الثاني -الذي اكتشف قريبا في سقارة- واقفا وحيدا مديدا تخرج من أقدامه نافورات من المياه.

ولكن التأثير الواضح للفراعنة على القاهرة هو محاكاة لتصميماتهم ونقوشهم تزين بها قاعات المطاعم أو ترسم على بعض الأقمشة.

ولعلي أكون مخطئا في ذلك. فهناك تأثير إيجابي فرعوني واضح، ذلك أن الشابات يضعن الكحل حول عيونهن التي هي واسعة أصلا. كما أنهن -بحيلة فنية- يتوصلن إلى إرسال شعورهن السوداء على نمط شعر نوفرت الجالسة على الدوام بجوار وزجها الأمير رع حتب في الغرفة رقم ٣٢ بالدور الأرضي في المتحف.